مجلة
روايات أحلام

١١

لن أكون لك!

www.elromancia.com

مرمورية

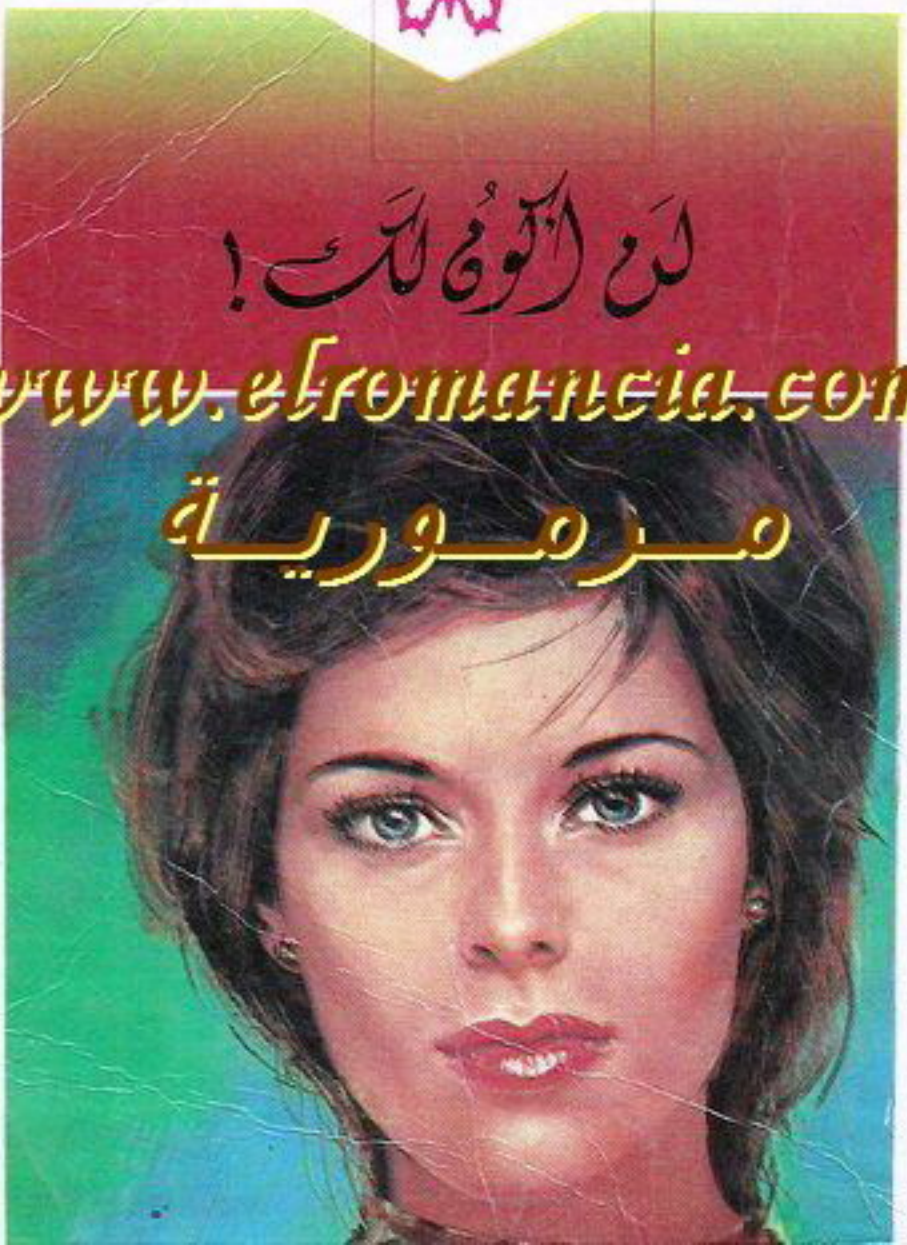

مجلة روايات أحلام

«أنا أفضّل أن أتحق بالدير على أن أتزوج من هذه الفتاة».

ارماندو دوفيلي وجد نفسه يتجه إلى فخ، فقصر آل روشفور سوف يؤولُ إليه، لكن يبدو أن الميراث يتضمن ليليان المخلوقة التي يتذكر كيف كانت قبيحة منذ سنوات طويلة.

ليليان كان لها رأيها أيضاً، فهي تفضّل البقاء عزباء على الزواج من هذا الشخص المغرور العابث، ومع هذا لا يمكن أن تدعه دون أن تلقنه درساً.

ولعبت ليليان لعبتها ببراعة، وكانت متأكدة أنها ستجعل رأس هذا المغرور يتمرغ في التراب عندما تنتهي منه. لكن ما لم تحسب حسابه أنها قد تقع هي أيضاً ضحية لعبتها.

لبنان ١٥٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٣ ج.	ليبيا ١ د.
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٠ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عُمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ الإرث امرأة

لمعت عينا أرماندو دوفيللي الزرقاوين وهو يقول دهشاً:

ـ تريدين أن أتزوج ليليان دي روشفور؟ وأنا لم أشاهدها منذ كانت في الثالثة عشرة؟

ردت والدته:

ـ هذا حل مثالي لوضع حرج.

اتكأ الرجل الطويل، الوسيم دون اكتراث إلى رف المدفأة الرخامي على ذراع واحدة بينما ترك الأخرى في الهواء حاملاً فيها سيكارة. كان لوجوده الأسمر المميز سيطرة خاصة على جو المخدع النسائي الذي يقف فيه.

قال دون اكتراث:

ـ لا ذنب لي إن كنت وريث لقب الكونت ادوارد... لذلك لن تقنعيني بأن أرث ابنته البشعة!

ـ لا ريب في أن شكلها قد تغير... لقد كانت في سن القباحة عندما شاهدتها.

ـ لن أقبل يا أمي... فالزواج بالنسبة لي كما تعلمين ليس سوى مزحة.

ـ ربما هو كذلك لكن ما العمل؟ فليليان هي طفلتهما الوحيدة وهما قلقان على مستقبلها ومنزلها.

خلّل أرماندو يده في شعره الأجعد الأسود:

ـ لا أفهم السبب. فلا ينقصها المال.

ردت الأم:

ـ الأمر يتجاوز المال. فقصر روشفور توارثوه أجيالاً وأجيالاً. أما الآن وهو يوشك على أن يؤول إليك بعد وفاة والدها...

ـ ومع ذلك أرفض الارتباط بفتاة لا أعرفها.

ـ التقها ثانية إذن. من المؤسف أنك لم تحضر عيد ميلادها الحادي والعشرين السنة الماضية.

ـ لقد كنا في إسبانيا.

ـ لو أردت المجيء لسهل أمر قدومك... ارضني بذهابك لرؤيتها هذا الأسبوع. لن تكوّن عنها رأياً دون أن تراها.

ـ لقد كونت رأيي منذ ثمانية سنوات... كانت فتاة قبيحة صغيرة. وهي دون أدنى شك ما زالت كما كانت.

ـ لكن جانيت تقول إنها جميلة.

ـ ماذا تتوقعين من أم تقول عن ابنتها؟ لو شاهدت عينيها يا أمي... عندما كانت تنظر إلي وهي صغيرة. كانت تبدو وكأن كل عين في اتجاه معاكس!

لم تستطع أمه إلا أن تبتسم.

ـ إنهم يصنعون العجائب في عمليات التجميل هذه الأيام.

ـ وماذا عن شكلها؟ شكلها يرعب الحشرة!

ـ لكنها كانت في الثالثة عشرة من عمرها، بحق الله يا بني... إنها الآن مكتملة البنية وهي كما تقول جانيت جميلة وذكية، فقد حازت على الإجازة الجامعية في المحاماة وهي تعمل في مكتب كما أظن.

ـ فتاة عاملة... ترتدي رداء أسود... هذا اسوأ!

دس أرماندو يديه في جيبي سرواله:

ـ انظري يا أمي... أنا أعرف سبب تصميمك على الفكرة، ولكن كما قلت لك. لم أطلب أن أرث لقب ادوارد أو ذاك المنزل. فهذا القصر هو منزلي.

كان في صوته رنة فخر وهو يدنو من النافذة ليحدق إلى المروج الخضراء التي تفسح الطريق بعد خمسين ياردا إلى بساتين أكثر اخضرارا لأشجار

الزيتون... بدا في النور أصغر من سنيّه الثلاثة والثلاثين... تابع بخشونة وتفكير:

ـ لقد أمضيت اثنتي عشرة سنة أعمل حتى تمكنت من انتاج أفضل زيت زيتون في كل سهول لايتوم... ويبدو الآن أن معاصرنا في وادي ساليرنو ستنافس كل زيوت إيطاليا... فلماذا أرغب في قصر وقطعة أرض في فرنسا؟

ـ اعطها لأولادك.

ـ إن أنجبت أطفالاً فلن يحتاجوها ولهم كل هذه الأملاك!

استدار إليها:

ـ الناس ليسوا حجارة شطرنج تلعبون بها يا أمي. ليس لدي النية في أن أربط نفسي بفتاة لا أحبها.

دلّ الاحمرار الشديد الذي عرا وجه أمه، على تسارع دقات قلبها، فكان أن خفّف من حدّة لهجته الجارحة قليلاً:

ـ اسمعي... سأقضي نهاية اسبوع عند ادوارد قبل نهاية الصيف. وأعدك بأن أوضح له بكل حذاقة وأدب أنني لا أناسب ابنته العزيزة.

قاطعته أمه وتعابيرها تفضح انزعاجها:

ـ قد لا تقبل ليليان بك.

ـ في هذه الحالة تبقى الكرامة مصانة، فيستريح ضميرك! في الواقع سأطلب من فيتوريو مرافقتي على أمل أن يعجبا ببعضهما بعضا!

فضحكت مدام دوڤيللي:

ـ إذا حصل هذا فستحصل ليليان على من هو أفضل منك. وسامتك يا بني أفسدتك!

انحنى أرماندو ليقبل أمه:

ـ فلنتوقف عن الحديث عن هذا الزواج السخيف هـه؟

ـ لكنك ستقضي نهاية الأسبوع في قصرهم؟

ـ أجل... ولو كان هذا لإيقاف ادوارد وجانيت عن ملاحقتي!

ابتسمت أمه... وانقلبت الابتسامة إلى تنهيدة عندما خرج... يا

للأولاد!... كم هم متعبون!

●●●

رقص شعر ليليان الأحمر وهي تهزه من الذهول:

ـ لا يعقل ما تقولين! كيف أتزوج أرماندو دوفيللي؟ وأنا لم أره منذ أن كنت طفلة!

ردت أمها في محاولة إقناعها:

ـ أما قلت إنه كان ساحراً وقتذاك وهذا يعني أنه ما زال كما هو. في كل الأحوال سيأتي زائراً في نهاية الأسبوع القادم وعندها تستطيعين الحكم عليه.

تذكرت ليليان ذلك الحب الطفولي الذي ترعرع في قلبها لابن عمها الثالث في الوراثة عندما أمضى إجازته الصيفية معهم، ليتعرف إلى القصر الذي سيرثه في النهاية.

قالت لأمها:

ـ أعرف أنك وأبي كنتما دائماً تتكلمان عن زواجنا، لكنني ظننتكما تمزحان.

نظرت جانيت دي روشفور إلى ابنتها بصرامة:

ـ كنا نمزح... ولكن... سيكون هذا الزواج مناسباً جداً يا حبيبتي. أنت تحبين هذا المنزل، وإذا اتفقت وأرماندو فسيبقى منزلك. لكن إن لم تحبي فذاك شيء آخر. مع أنه وسيم وذكي ترتمي بين ذراعيه معظم النساء.

قالت ليليان بخشونة:

ـ خاصة المتزوجات... لقد سمعت أنه شغوف بهن!

ـ لا يجب أن تصدقي كل ما تقرئينه... أنت تعرفين كيف تنشر المجلات الإيطالية الفضائح... على كل حال كتبت جينا تخبرني أنه يذكرك بشغف.

فكرت ليليان: هذا دون ذكر شدة شغفه بمالي. لكنها لم ترغب في تكدير أمها:

ـ المرأة لا تقع في حب رجل لأنه وسيم وذكي... حتى العلماء لا يعرفون ماذا يجذب شخص إلى شخص آخر... يعتقدون أن لذلك علاقة

بالهرمونات و...

فقاطعتها أمها:

ـ وفري علي محاضرتك الآن، أنت لا تكتبين إحدى مرافعاتك!

ـ وهذا يذكرني بشيء ما! لدي موعد نهائي يجب أن أفي به، لقد تأخرت في الأسبوع الماضي عن تحضير المرافعة.

ردت جانيت بإصرار:

ـ لكنني لم أنه كلامي معك.

لكن سافا ليليان المديدتان الفاتنتان كانتا قد أوصلتاها إلى الباب... الزواج من أرماندو دوفيللي؟ تفضل البقاء عزباء طوال عمرها على الزواج من رجل عابث مثله. ابتسمت وهي تتذكر شغفها به عندما قضى ذينك الأسبوعان اللذين أقامهما هنا... كانت تتبعه كجرو متعلق بأذيال أمه وهي إلى ذلك كانت تصاب بالحمّى كلما ابتسم لها. ولكنها تخطت كل هذا... وعادت ذاكرتها بها إلى هذا الزواج الغبي!

كانت أمها قد قالت لها منذ سنوات طويلة ان أرماندو قد استرد ثروة عائلته التي بددها والده، لكنها مقتنعة بأنه غير منجذب إلا لمالها... فهو إيطالي والإيطاليون معروفون بأنهم يتزوجون في سبيل المال ثم يتخذون لهم بعد ذلك عشيقة.

لكن من المستحسن رؤيته من جديد. وهي تترقب حالياً الدهشة التي ستعلو وجهه حين يرى التغيير الذي أصابها. ضمت شفتيها في ابتسامة جميلة عندما تذكرت شدة نحولها وقباحتها في ذاك الوقت... لكن تلك النحيلة تحولت إلى فتاة مديدة ممتلئة. والشعر الأصهب الجزري المسترسل انقلب إلى أمواج حمراء بنية، والأسنان الملتوية صلح اعوجاجها وها هي الآن محط أنظار الرجال الذين تدير لهم رؤوسهم كلما مرّت بهم!

سألت أمها ويدها على مقبض الباب:

ـ متى سيصل الفتى الوسيم؟

ـ يوم الجمعة... أرجوك كوني لطيفة معه يا عزيزتي فجينا إحدى أعز

صديقاتي.

ـ أنت لم تريها منذ سنين.

ـ لأنها تمضي معظم وقتها في إيطاليا مع أرماندو... ليليان أرجوك أصغي إلي؟

ـ فيما بعد يا أمي... لدي عمل.

حان يوم الجمعة، فسلمت ليليان المرافعة إلى رئيسها شاعرة بالإثارة من جرّاء ترقب الرجل الذي سحق قلبها المراهق مرة مع أنها لم تعترف قط بهذا حتى لنفسها. ودهشت عندما علمت أن برفقته صديق. فتساءلت للمرة الأولى عما إذا كان قلقاً من مقابلتها.

كانت تفكر في هذا عندما دخلت برتا، الخادمة التي تساعدهم، إلى غرفة الجلوس لتعلن أن الشابين الإيطاليين وصلا.

سألتها ليليان:

ـ هل تمكنت من رؤيتهما؟

ـ أجل! إنهما رائعان... خاصة ابن عمك... الذي بدا ارستقراطياً.

رفرفت برتا بعينيها دلالة السحر:

ـ لو كنت أعلم أنه سيحضر لطلبت العمل وقتاً كاملاً عندكم.

ووضعت يدها على فمها:

ـ اوه... آسفة لم أقصد...

فقالت ليليان:

ـ انسي الأمر... ما يجعلني اشمئز أن هذا المتسلل ينتظر على أحر من الجمر ليحل مكان أبي... ساسترق النظر إلى ضيفينا قبل أن ألتقيهما. ليتني أعرف مكانهما لأستطيع التحري.

ـ سأتحرى لك عن مكانهما!

أسرعت برتا إلى الخارج. وعادت بعد ربع ساعة لتقول إنهما يشربان القهوة في الشرفة.

ارتدت ليليان ثوباً أخضر قاتماً ووشاحاً مماثلاً لتخفي شعرها، فهذه

الألوان ستخفيها تماماً بين الشجيرات الخضراء حيث تنوي الاختفاء... تسللت من السلم الخلفي إلى خارج المنزل. أخفضت رأسها ثم تقدمت إلى الأمام حيث شاهدت الرجلين يجلسان إلى الطاولة. كانا مستغرقين في الحديث، فاقتربت أكثر. واستقرت وسط أجمّة كثيفة من الورود، ما كان ليستطيع أحد رؤيتها من خلالها ولو كان على بعد خطوة منها.

أبعدت غصناً من أمامها متشوقة إلى رؤيتهما بشكل أفضل. حُبست أنفاسها في حلقها! فقد رأت أوسم الرجال وأشدهم فتكاً. إنه أرماندو، عرفت هذا على الفور، في هذه اللحظة عاد إلى الحياة عشق المراهقة الذي ظنته قد ضاع من ذاكرتها أمام الجسد الطويل النحيل، والتقاسيم العدوانية في جمالها.

ركزت عينيها عليه للحظات طويلة... وهي تحس بهشاشة في داخلها لم تحسها من قبل... ثم حوّلت كارهة اهتمامها إلى صديقه. بدا أن للرجلين القوام نفسه لكنهما على النقيض فالرجل أشقر وأرماندو أسمر. شعره ذهبي كلبرة ذهبية جديدة الصك ولعينيه ذاك اللون ذاته. تقاسيمه أدق من تقاسيم أرماندو وهذا يدل على سلاسة شخصيته.

هما باختصار وسيمان، بهيا الطلعة، مثالان للرجولة قادران على إدارة رؤوس الإناث.

سمعت صديق أرماندو يقول بلغة إيطالية سريعة، تمكنت من فهمها لأنها درست الإيطالية في الجامعة:

ـ إني إلى الآن لا أفهم سبب إتيانك بي إلى هذا المكان؟

ـ كي تراقبني ألعب دور الابن البار. وأنا أوثق عهدي مع ليليان الجميلة.

استقبل هذا الكلام بضحكة ساخرة:

ـ توثق عهدك... اللعنة! لا أتصورك تتخلى عن عزوبيتك في سبيل أية امرأة!

ـ هذا ما قلته لأمي... لكنها لم تنصت إلي ولأرضيها قدمت إلى هنا لألتقي الفتاة ولأقدمك إلى إحدى أجمل جميلات فرنسا.

ابتسمت ليليان بسعادة... من قال ان مسترقي السمع لا يسمعون شيئاً طيباً

عن أنفسهم؟ لكن سعادتها كانت قصيرة الأمد لأن أرماندو أردف قائلاً:

- لا تُظهر كل هذه السعادة يا صديقي... فلو أن ليليان قبيحة الآن كما كانت في الثالثة عشرة من عمرها...

تنهد بعمق ثم وضع ساقاً فوق ساق:

- فالأمهات من الشياطين!

- ربما صلُح شكل الفتاة.

- وكيف تُصلح الأسنان الملتوية أو تُعدِل الحول؟

فهز فيتوريو رأسه:

- ذلك صعب... لكن كيف ستعالج الوضع إذن؟

- بسحري وحذاقتي المعتادين... سأوضح لذويها أنني لا أنوي الزواج في المستقبل القريب، مع أنني أجد ابنتهما جذابة وجميلة.

رد فيتوريو:

- لكن من اللؤم أن تقول لأنثى إنك لست ممن يتزوجون. هذا سيكون كمن يلوح بقماش أحمر أمام الثور! فكلما لعبت دور صعب المنال، كلما ضاعفت سعيها للوصول إليك.

فقال أرماندو ببطء وتفكير:

- ما رأيك إذن... ما رأيك في أن أقول إنني سألتحق بالدير؟

ضحك رفيقه عالياً:

- الالتحاق بالدير أمر مقنع للغاية!

ضحك أرماندو...

واهتاجت ليليان غضباً وهي في مخبئها الأخضر. ثم راح عقلها يبحث بكل الطرق الممكنة عن وسيلة لتعذيب هذا الخنزير المتعجرف. أسنان ملتوية وحَول... هـه! انتظر إلى أن تضع يديها عليك... سوف تمزقك إرباً إرباً!

عاد فيتوريو إلى الكلام:

- أرماندو... إذا كانت هذه الفتاة المسكينة قبيحة كما تقول، فكان من اللباقة واللطف البقاء بعيداً عنها؟

- قلت لك إنني لم استطع التملص! ولكن شيئاً واحداً أنا أكيد منه هو أنني كلما سارعت إلى انهاء الزيارة كلما كان ذلك خير لي!

سمعت ليليان صرير الكرسي فوق أرض الشرفة الحجرية ثم رأت أرماندو يهب واقفاً على قدميه. بدا أكثر جاذبية، عرض منكبيه يدل على أنه في حالة جسدية ممتازة... فكرت: أنا أعاينه وكأنه كتلة لحم فوق خطاف الجزار، ولم تكد تكبح ضحكتها. لكن هذه هي نظرته لها، ولقد أوضح بأنه لن يشتري من هذا اللحم شيئاً! وهذا بالضبط ما قالته هي لأمها.

وقف فيتوريو أيضاً ثم انطلق الرجلان إلى الداخل... تاركين ليليان تتحرق غضباً بين شجيرات الورود.

استقامتها جعلتها تعترف بأنها عندما كانت في الثالثة عشرة لم تكن جميلة. لكنها لم تكن كدراكولا!

فجأة علت الضحكة شفتيها وقد عنَّت لها فكرة: لِمَ لا تجعل هذه الكتلة الضخمة تأكل كلماتها... آه... أجل... سألقن أرماندو دوڤيللي درساً لن ينساه!

بعد أن تأكدت من خلو المكان، زحفت خارجة من بين الأجمة، مسرعة إلى غرفة نوم أمها التي وجدتها جالسة على طاولة الزينة تجمع شعرها الأشقر الطويل في عقدة خلف الرأس... التفتت إلى ابنتها فرأت وجهها مشتعلاً احمراراً.

- ما بك يا عزيزتي.

- لقد كنت استرق السمع لما يقوله أرماندو دوڤيللي...

تدفقت كلماتها بسرعة لتسرد عليها... لكنها لما رأت أن دهشة أمها انقلبت إلى قهقهات عالية دهشت:

- هذا جزاء من يسترق السمع! على كل إنه على حق... لقد كنت أكثر المراهقات قباحة.

- لكني لم أكن كالمسخة التي وصفها!

www.elromancia.com

ـ هل تنتظرين من رجل كان... كم كان عمره يومها؟ في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين؟... أن يرى أوزة جميلة في بطة بشعة. أنت الآن أوزة جميلة دون شك يا حبيبتي... كما سيكتشف قريباً... أنا أراهن على أنه سيركع عند قدميك!

ـ بل ربما يقبلهما أيضاً! لكن هذا لن ينفعه... فلن أكون لطيفة مع ذلك المتكبر المغرور...

ـ الوسيم المثير...

ـ أمي!

ـ حسناً! إنه هكذا! قد أكون في الخمسين، لكنني لست عمياء! أعلم أنك متزعجة يا حبيبتي، لكن لا يمكنك لومه... فبعد أن تلتقيا لن يكون لما سمعته وزناً.

قالت ليليان متمردة:

ـ لكنك لم تسمعيه يا أمي!

ـ أعرف... لكني آخذ كلامه على محمل الهزل. فكري كم سيضحك عندما يراك... فكل الغرض من الزيارة أن تلتقيا.

توقفت الأم عن الكلام وقد لاحظت أن عيني ابنتها تبرقان حتى بدتا كعيني قطة... فتابعت كلامها:

ـ ليليان... أنت تخططين لمؤامرة! وهذه النظرة التي علت وجهك لا تعجبني.

راحت ابنتها تذرع الغرفة:

ـ لن يحب أرماندو هذا... لقد تراءت لي الآن الطريقة المثلى للانتقام منه.

قالت الكونتيسة وهي تقف:

ـ لن أصغي إليك. لن أصغي إليك.

ـ يجب أن تصغي يا أمي... احتاج إلى مساعدتك.

ـ لا يا ليليان.

كان في نظرة ليليان توسل ليّن قلب الأم وجعلها تسأل:

ـ حسناً ما هي خطتك؟

راحت ليليان تشرح بسرعة خطتها فبدا على جانيت دي روشفور الاستنكار. لكن سرعان ما تغلبت روح المرح عليها... وهذا ما أملت ليليان بالضبط... قالت الأم موافقة على مضض:

ـ سيكون هذا رائعاً إذا نجح. لكنني لا أحسبك ستنجين من النتيجة.

ـ ولم لا؟ ألم أمثل الدور الأول في تمثيليات المدرسة؟

ـ الأمر مختلف، فهذه ليست تمثيلية على المسرح.

ـ الدنيا كلها مسرح... انظري يا أمي... كل ما أريده هو أن أخيفه. في البداية سأدعه يراني قبيحة، وعندما ينضج قليلاً على ناره. سأنزل إلى العشاء بكل بهائي الساطع.

ـ علي أن أعترف بأنها فكرة مسلية.

ـ إذن اتصلي بأبي وأخبريه بأنني مصابة بالحصبة.

ـ الحصبة؟ هل هذا ضروري؟

رفعت جانيت سماعة الهاتف الداخلي على مضض:

ـ ادوارد؟ حدث شيء رهيب... ليليان أصيبت بالحصبة.

ـ كنت أعرف أن هذا سيحدث... عامل الاسطبل الجديد مصاب بها وقد ركبت الخيل برفقته منذ أيام... ولكن مهلك... ألم تصب بالحصبة السنة الفائتة عندما كنا في مونت كارلو؟

سمعت ليليان ما قال لأنها كانت تضع اذنها قرب اذن أمها، فحركت فمها لتقول بصوت منخفض جداً:

ـ تلك حصبة المانية.

ـ تلك حصبة المانية يا ادوارد.

ـ اوف!... هذا يضع نهاية للقائها بأرماندو... إلا إذا كان قد أصيب بها من قبل.

ـ أصيب بها أم لا... فإنها لن تقابله وهي في هذه الحالة.

ـ يا حبيبتي... بقع حمراء لن تخيفه.

هزت ليليان رأسها بقوة لأمها:

ـ لا يا حبيبي... لن تقبل مطلقاً أن تراه إلى أن تشفى؟

ـ فتاة عنيدة. ولست أدري من أين أتت بعنادها كله...

ـ من أمك يا عزيزي، كما أعتقد.

تابع الزوج كلامه متجاهلاً تعليقها:

ـ من الأفضل أن تتكلمي مع أرماندو إذن. قولي له إن بإمكانه السفر بعد العشاء إذا أراد.

ـ ليس من اللياقة قول ذلك. سندعه يقرر بنفسه.

أعادت السماعة ثم ابتسمت لابنتها:

ـ أتعلمين. لقد بدأت أتمتع بهذه اللعبة.

ـ كنت أعلم هذا... والآن كل ما عليك فعله هو الاتصال بأرماندو.

اتصلت الأم بأرماندو بثقة فائقة. استمعت ليليان بتوتر لكلامه الذي غلب عليه اللكنة الإيطالية:

ـ إن هذا الخبر لمخيب للآمال. كنت في غاية الشوق إلى رؤية ابنتك الجميلة.

ردت عليه مضيفته:

ـ وليليان متزعجة أيضاً... لكن لا سبب يمنع من أن تلمحها.

ـ ألمحها؟

ـ أجل يا ولدي العزيز. إذا ذهبت إلى حديقة الورود بعد نصف ساعة ونظرت إلى نافذة الطابق الأول... سترى ليليان تلوّح لك.

ـ يا لهذه الفكرة الساحرة! وبعدها ستسمحون لي ولفيتوريو بالعودة إلى إيطاليا... فبعد أن مرضت ليليان لا يجب أن تزعجوا أنفسكم بالضيوف.

ـ أبداً، لا ازعاج... فنحن مسرورون بكم. ابقيا معنا الليلة يا أرماندو، ثم سافرا في الصباح. لكنني آسفة لأن رحلتك ضاعت سدى.

ـ رؤية ليليان من النافذة لن تجعلها ضائعة سدى.

قال هذا بلهجة كاذبة مفضوحة مما جعل ليليان تتراجع إلى الخلف بعيداً عن سماعة الهاتف الداخلي لئلا يسمع ضحكتها.

علقت بعد انتهاء المكالمة:

ـ سأكون وأنا في الثالثة عشر ساحرة الجمال مقارنة مع ما سيرى بعد نصف ساعة!

ـ ماذا ستفعلين؟

ـ لا أعرف حتى الآن. لكنه لن يكون منظراً جميلاً!

قالت الأم بإصرار:

ـ لكن يجب أن تكوني في أفضل حال عند العشاء.

ـ لقد وعدتك بهذا. فكفي عن القلق.

بعد عشرين دقيقة، استرقت النظر من خلف ستائر نافذة غرفة نومها. فشاهدت أرماندو، يتجه نحو حديقة الورود... بدا غافلاً عن الورود الملونة ورائحتها العطرة التي تخلب الألباب. اقتربت من الزجاج أكثر ثم فتحت الستائر.

التراجع المذعور الفوري هو تماماً ما كانت ترقبه. غرزت أظافرها في راحة يدها لئلا تنفجر بضحك هستيري. فقد نالت منه تماماً!

برزت خصلة شعر برتقالية شعثاء جعداء من تحت خمار بنفسجي ربطته بشدة حول وجه شاحب منقط ببقع حمراء وعليه مسحوق كثيف وعلى وجنتيها أحمر شفاه برّاق. أمّا فمها فبرزت منه أسنان ملتوية بارزة جعلت من دراكولا أجمل منها هذا دون ذكر النظارة السميكة العدسات التي برقت تحت أشعة الشمس.

قالت له بصوت أجش قاطع كأنه الثلج:

ـ آسفة بشأن الحصبة! لكنني أمل بأن نلتقي في إيطاليا عندما أصبح بحال أفضل...

فرد عليها بصوت مصدوم:

- سأسافر إلى فرنسا في أي يوم قادم الآن.

- إذن عندما تعود.

- قد أغيب أشهراً.

- لا بأس. قد أطير إلى هناك لأفاجئك!

ضحكت له ضحكة هي أشبه بصهيل الخيل ثم مدّت نفسها خارج النافذة لتظهر له صدرها الكبير المترهل. لقد دعاها بالحشرة الضعيفة. ولكي تغيظه أكثر جعلت نفسها الآن ضخمة مترهلة وكأنها بقرة حامل!

قالت له بصوت يشبه صرير الأبواب القديمة:

- هل سبق أن أصبت بالحصبة يا أرماندو؟

- أنا... ولماذا؟

- لو أصبت بها فقد تتمكن من الصعود إلى هنا لرؤيتي... لأنها لن تصيبك مرتين.

فصاح بعجل:

- لم أصب بها مرة... أرجوك لا تقفي في النافذة طويلاً لئلا تصابي بالبرد.

- يا لاهتمامك بي! أتمنى فعلاً لو أكون معك.

قال كاذباً وهو يتراجع:

- وأنا كذلك.

وضعت «صدرها المخدة» على حافة النافذة ليراه، وقالت:

- وماذا ستفعل الآن؟

فرد بلهجة مخنوقة:

- سأتمشى في الغابة حتى موعد العشاء. «تشاو» ليليان. أتمنى لك الشفاء.

ثم استدار على عقبيه، وانطلق وكأن شيطاناً يلاحقه، تاركاً ليليان تنهار على أقرب كرسي تضحك ضحكات عالية كادت تبكيها.

●●●

٢ - الوجه الآخر لامرأة

ما أن التقطت ليليان أنفاسها، حتى خلعت تنكرها، وأخذت برتا التي ما زالت مستغرقة في الضحك تساعدها. سألتها ليليان ضاحكة:

- هل شاهدت وجهه؟ وتعبيراته المذعورة؟

فقالت برتا مقطوعة النفس من الضحك:

- أظن أن منظرك سيطارده كالشبح لما تبقى من أيام حياته... لكن المؤسف أن هذا الدرس لن يطول إلا قليلا.

لمع الخيال في عيني ليليان الرمادية.

- قد يستمر، فكما تقولين، من المؤسف أن أدعه يفلت مني بسهولة.

غمست اصابعها بسرعة في معجون خاص للتنظيف وبدأت تنظف وجهها من أحمر الشفاه. فسألتها برتا:

- ماذا يدور في خلدك؟

- لا شيء بعد. إنني أفكر.

عادت إلى النافذة، وكأنما الجواب يكمن هناك في حديقة الورود. لكنها لم تشاهد شيئاً سوى فرحة الألوان، وأرماندو يسير نحو ظلمة الغابة القريبة.

صاحت وهي تستدير:

- لقد وجدتها! اسمعي يا برتا جيداً.

أصغت برتا مشدوهة ثم تحولت دهشتها إلى شهقات فقالت:

- إنها فكرة ساحقة. أتظنين أن بإمكانك تنفيذها؟

- بالطبع أستطيع... لكن يجب أن نسرع قبل أن يختفي.

بعد دقيقتين كانت برتا تلف نفسها بروب ليليان، خارجة من الغرفة ضاحكة بينما ارتدت ليليان بسرعة ثوب الفتاة الأزرق وفوقه مريلتها البيضاء. تنكرت هذه المرة بشكل مختلف عن مظهر المهرج الذي ظهرت فيه عند النافذة.

نظرت إلى نفسها في المرآة، فسرّها ما رأت. نزلت من السلم الخلفي، ثم اتجهت إلى الغابة.

كان الجو لطيفاً بعد حرارة النهار... سارت بحذر نمرة تريد الانقضاض على ضحيتها. بعد قليل شاهدت أرماندو.

وجدته جالساً على جذع شجرة مكسورة وظهره إليها يرمي الحصى على جذع شجرة أخرى قريبة. خفق قلبها بحماقة عند رؤيته حتى كادت تتخلى عن خطتها، لكنها لما تذكرت أقواله القاسية التي لا مبرر لها تلمست فستانها وتقدمت منه.

التفت إليها بحدة. فجالت عيناه فيها، بطريقة محرجة ذلك أن تنورتها كانت قصيرة بعض الشيء... تباً لبرتا، لماذا لم تكن أطول قامة مما هي عليه!

رفعت صوتها بعض الشيء ثم تفوهت الكلمات بلكنة ريفية بارزة.

ـ عمت مساء يا سيدي.

ـ مساء الخير.

بقي حيث هو، أما عيناه فجالتا فوق جسدها بإعجاب صريح... يا لهذه الأخلاق! نظرت إلى مظهره المشدوه نظرة صاعقة. وكأنما أحس بسخريتها، فوقف ببطء. لما راحت تراقب جسده، أحست بمشاعر هشة تغمرها. فهي وإن كانت حافية القدمين لم تعتد النظر عالياً إلى وجه رجل إلا أنها اضطرت الآن إلى ذلك!

سألته:

ـ أتمانع لو استريح قليلاً؟

دون أن تنتظر الرد، رمت نفسها فوق العشب. فقال لها:

ـ تفضلي.

عاد إلى جذع الشجرة مادّاً ساقيه... ثم قال مشيراً إلى ثوب خدمتها:

ـ أعتقد أنك تعملين لدى عائلة الكونت؟

ـ أجل... لقد تسللت هاربة من تلك الكلبة السيئة الطباع!

بدت على وجهه الدهشة:

ـ أية كلبة؟

ـ الآنسة «ل»، ومن غيرها؟ لقد عاودها ذلك المزاج الكريه ثانية بسبب إصابتها بالحصبة وعدم تمكنها من مقابلة ذلك «الجوغولو» اللعين الذي جاء خصيصاً لرؤيتها...

ضاقت عينا أرماندو:

ـ جوغولو؟

ـ أجل... شاب إيطالي يسعى وراء مالها. مع أن لا فرصة أمامه للحصول عليه، لقد شاهدته من النافذة ولم يعجبها ما رأته. لقد قالت ان كل ما يحتاجه هو شعر أطول حتى يبدو كالفتاة!

احمرّ وجه أرماندو الأسمر.

ـ صحيح؟

وجدت ليليان صعوبة في المحافظة على هدوئها... فضحكت ضحكة مهينة.

ـ والثياب التي يرتديها! لقد قالت الآنسة «ل» انه ملفوف بثيابه وكأنه ذاهب إلى حفلة... مع أن المفروض به أن يكون في إجازة ريفية.

اشتد فم أرماندو غضباً ورمى حصاة كبيرة بقوة إلى الشجرة:

ـ هكذا إذن.

أكملت ليليان:

ـ لذا أعتقد أنه لن ينجح في مسعاه... إنها تسميه الولد الجميل اللعوب!

كان هذا أكثر من أن يطيقه... فهبّ واقفاً... فكان أن وقفت هي أيضاً بعفوية.

ـ عليّ الذهاب الآن.

لكنه أمسك كتفيها، باعثاً بلمسته الدفء إلى جسدها فحاولت أن تنتزع نفسها منه وقد أغضبتها ردة فعلها هذه... فقال لها بلطف:

ـ لا تخافي... لن أؤذيك. كل ما أريده هو رأيك الصريح.

ـ عمَّ؟

ـ عما إذا كنت متخنثاً.

اتسعت عيناها بدهشة ساخرة:

ـ أنت يا سيدي؟ أتعني... اوه لا... لا يمكن أن تكون ذلك السيد الإيطالي الذي ذكرته الآنسة ليليان!

ـ هذا أنا. وما زلت أنتظر ردك.

فرفعت رأسها، وتأنت في إمعان النظر فيه، لكن تعابير وجهها توترت... فردد متشوقاً:

ـ حسناً؟ ما زلت أنتظر حكمك؟

قالت بجسارة:

ـ أظنك ساحراً بل فتاناً، اوه يا إلهي! أرجوك لا تذكر أنني قلت لك هذا لئلا أخسر وظيفتي.

ـ لن أتفوه بكلمة... ولا يهمني ما تظنه بي ليليان، ففي الواقع، هي على الأرجح عمياء لا ترى شيئاً!

حسناً... أنا لست عمياء! وأستطيع أن أرى بوضوح مدى خساستك! لكنها استعادت وعيها بسرعة من وصفه المهين! يا ترى من يستطيع لومه والنساء يرمين أنفسهن عند قدميه؟

سألها فجأة:

ـ منذ متى تعملين في هذا المنزل؟ لا يجب أن تعمل فتاة جميلة مثلك خادمة في الريف.

ـ أعرف... لكن كيف لي أن أجد وظيفة في هذه الأيام العصيبة.

فأطلق بسمة شيطانية:

ـ قد أتمكن من مساعدتك؟

ـ كيف؟

ـ هذا ما يجب أن نتحدث عنه.

فقطبت حاجبيها:

ـ إذا كنت تلمح إلى ما أفكر فيه يا سيدي، فلك أن ترمي نفسك في البحيرة!

ـ هاي... كنت أمدحك فقط!

ـ إنه مديح ملتو، أستطيع الاستغناء عنه، فلست لعبة سهلة، أتعلم هذا؟

كان لديه اللباقة ليظهر اعتذاره:

ـ آسف... كل ما عنيته أنك شابة جميلة. فليس لدي نوايا خفية، لأنني أفضّل صحبة النساء الرفيعات المستوى.

ـ إذن، كيف ستتزوج من الآنسة «ل»؟

ـ لن أتزوجها. خير لي أن أصبح راهباً على أن أتزوج من غولة! لكن المشكلة... أن أمي لن تعدل عن الفكرة ما دمت أعزب.

قالت ليليان متجهمة:

ـ قد تغلبك في النهاية.

ـ ما من مجال مطلقاً.

وقف... ثم تمشى وهو يحدق إليها فسألته:

ـ لماذا تمعن النظر فيَّ؟

ـ لأنك أوحيت إليَّ بفكرة.

ـ لكنني لم أقل شيئاً!

تابع تحديقه:

ـ إن وجدت خطيبة مؤقتة فقد أحبط مخطط أمي.

ـ دون شك. لكنك عندما ستتحررّ ثانية ستعود إلى الشكاية من جديد.

ـ سأنال بذلك بعض الوقت من الراحة وسأبقي على هذه الخطوبة حتى أسافر إلى إسبانيا، حيث أقضي عادة عدة أشهر، وعندما أعود سأدّعي بأنني

محطم القلب.

ضحك:

ـ هذا أفضل حل توصلت إليه حتى الآن. وكل ما علي الآن البحث عن الفتاة المناسبة.

فقالت ليليان ساخرة:

ـ أنت وسيم فلن تجد صعوبة في تحقيق ما تريده.

ـ أنت على حق... ولقد وجدتها.

ـ من؟

ـ أنت.

ـ أنت مجنون!

وجدت ليليان فكرة خطبته الزائفة ذكية ولكنها لم تفهم سبب حاجته إلى مساعدة فتاة مجهولة التقاها لتوه... فقالت بإصرار:

ـ لا ريب في أنك تعرف نساء كثيرات قد يتعلقن بهذه الفكرة.

ـ إنهن بالعشرات... لكنني سأوقع نفسي في مشاكل أنا بغنى عنها! فالنساء يملن إلى التمسك بي.

قال هذا بكبرياء، جعل ليليان تود لو تخزه بدبوس!

ـ لماذا تحسبني مختلفة؟

أمسك ذقنها عابثاً:

ـ وإن كنت لا تختلفين عنهن فأنا أعرف السبيل إلى معاملتك... هيا الآن... ماذا ستخسرين؟

ـ سأخسر أولاً وظيفتي التي لن أقدر على استعادتها ثانية.

ـ لن تحتاجي إلى وظيفة... سأعطيك ما يغنيك عنها... فلنقل... عشرة آلاف فرنك؟ إضافة إلى إقامة تدوم بضعة أسابيع تنيرين فيها حياتي.

قالت له ساخرة:

ـ أنت تبالغ في تقدير نفسك. أنا لا أنكر وسامتك لكنك مع ذلك لست من طرازي.

فقال بمرح:

ـ وهذا ما يجعلنا آمنين.

ـ اوه... لكنك منذ لحظات قلت انني جميلة.

ابتسم ابتسامة عميقة:

ـ هذا صحيح... ولكن، كما قلت، أنا أفضل النساء الرفيعات المستوى. أؤكد لك أنك ستكونين في أمان معي فستنالين قسطاً وفيراً من المال... فلماذا لا تساعدينني؟

كان الإغراء بالقبول كبيراً جداً فقد تراءى لها كل الوضع المضحك. ستجعل منه غبياً، وستظهر له مدى غبائه عندما تكشف عن حقيقة هويتها.

قالت ببطء:

ـ حسناً... لكنني أريد عشرين ألف فرنك.

ـ إنه مبلغ كبير لعمل لن يدوم إلا أشهراً.

ظهرت الخيبة على ليليان:

ـ أشهراً؟

قد تمثّل يومين أو أسبوعاً، لكنها لن تقدر أبداً على الاستمرار في التمثيل كل هذا الوقت الذي يذكره.

ـ لن أستمر أشهراً. إن ذلك لمستحيل.

وجاء الرد المتسرع:

ـ فليكن شهراً واحداً إذن. كل ما أطلبه هو وقت يكفي لإقناع أمي بحبي لك... لهذا، عليك البقاء معي في قصري.

ـ عليك إذن دفع ثلاثين ألفاً.

ـ هاي، كلما فتحت فمك يزداد الثمن.

ـ لأنك كلما فتحت فمك تصعّب المهمة. والإقامة في منزلك مع والدتك لن تكون نزهة... سأضطر للبقاء على حذر طوال الوقت.

ـ ستعتادين الوضع بل ستتمتعين به.

ـ سأتمتع بالمال الذي سأكسبه في النهاية... لماذا علينا البقاء في قصرك

هذه المدة كلها؟

- لدي عمل يجب أن أكمله هناك.

- أتعني أنك سيد مزارع؟

لاحظته يخفي ابتسامته، فقال شارحاً:

- أملك بساتين زيتون... ومعاصر زيت... ونحن في موسم الزيتون لذا لا بد من أراقب الطقس ونمو الزيتون فقد أحتاج إليك مدة أطول من المطلوب لكن إياك أن تفتحي فاكِ فلن أدفع فلساً آخر فإما أن ترضي وإمّا أن ترفضي.

- سأقبل... لكنني أريد النصف الآن. والباقي في نهاية المدة.

- أنت ربة عمل صعبة المراس.

- بل أنت رب العمل... لكن إياك التفكير في أنني قد أقع بين ذراعيك في النهاية!

- لا خوف عليك... فلنتصافح تأكيداً على الاتفاق.

مدت إليه يدها ببطء، فصافحها بيد ثم رفع باليد الأخرى وجهها إليه لينظر إلى عينيها الرماديتين العميقتين، وتمتم:

- أظن أن تبرجاً أقل سيكون أفضل... كبداية.

كان الرد جاهزاً على شفتيها، ولكنها ابتلعته. فلو أنها ترغب في الاستمرار بهذه التمثيلة التي وقعت صدفة بين يديها، فمن الأفضل أن تلعبها بحذر... وهي دون شك ستكون قصة جميلة لو نشرتها في المجلات النسائية!

قال لها بعد أن ترك يدها:

- سنسافر إلى إيطاليا غداً في الصباح الباكر.

أحست ليليان بقدميها تبردان:

- بهذه السرعة؟

رقّت لهجته:

- بعد أن مرضت الآنسة ليليان فإنّ آل دي روشفور لن يرغبوا في بقائي في منزلهم. لا تخشي شيئاً سأجد حلاً لوضعي.

فكرت ملياً في كلماته ثم قررت، فهذا الوضع وإن كان صرعة الموسم فلن

يكون نهاية العالم. كل ما عليها أن تفعله هو أن تخبره الحقيقة في وقت مبكر.

ثم بعد هذا... ماذا؟ هل سيفترقان صديقين أم عدوين؟ رفضت أن تفكر إلى أبعد من الأسابيع القليلة القادمة.

قطع الصمت بينهما:

- اتفقنا إذن؟

- لست متأكدة يا سيدي... أنا... أجدك مخيفاً.

ضحكت مظهرة التوتر، فقال:

- لماذا؟

- حسناً لقد سمعت أنك ماجن عابث و...

قاطعها بلهجة من أهين:

- ماجن؟ سأثبت لك أنني أعمل بكد و... ولكن لماذا علي أن أبرر نفسي؟ فأنا أدفع لك لتؤدي دوراً... لا لتحققي في شؤون حياتي.

- ومع ذلك فيجب أن أعرف شيئاً عنك، وإلا كيف لي أن أحبك؟

- سحري كفيل بذلك.

- أي سحر؟

فضحك:

- لك لسان لاذع... ما اسمك؟

- ليليان...!

أضافت بسرعة وقد اعتلت وجهه الدهشة:

- أليست مصادفة غريبة؟ لكن الجميع هنا يناديني باسم أمي «برتا» للتفريق بيني وبين الآنسة.

- حسناً... برتا. أعدك بأن أقص عليك شيئاً من حياتي حالما نغادر هذا المكان. سألتقيك عند المفترق في التاسعة من صباح الغد.

- لكن المكان بعيد بالنسبة لي خاصة وأنني سأحمل حقائبي. تعالَ ليلاً إلى باب المنزل الخلفي لتصحبني.

ـ حسناً... لكن حذاري أن يرانا أحد.

فردت بسخرية:

ـ حاضر يا سيدي... ثمة تعليمات أخرى؟

أجاب بلهجة آمرة متسلطة:

ـ لا... اللعنة أجل... ثمة شيء آخر! لا تناديني «سيدي» فاسمي أرماندو، ولا تستخدمي أحمر الشفاه السخيف هذا ولا تكثري من الضحك.

ـ لكنني سأضحك كلما وجدتك مضحكاً ولعل السبب تصرفاتك الغريبة عني. أنت أجنبي.

ـ لن أكون أجنبياً في إيطاليا!

وقبل أن تجيب، تركها مبتعداً دون أن يلقي نظرة.

لم تكن ليليان واثقة إلى أين ستقودها هذه المسرحية الهزلية، أو كيف ستنتهي. إنها لا تخدع أرماندو فقط بل والدته أيضاً. فكرت في والدته فكيف ستكون ردة فعلها على تغير مسار الأحداث؟

وجاءها الرد القاطع من أمها بعد دقائق:

ـ الأمر خارج نطاق البحث قطعاً يا ليليان! لا بأس بأن تخدعي أرماندو... فهو بحاجة إلى ضربة لغروره... لكنني لن أرضى أن تخدعي جينا.

ـ لن تدوم الخدعة طويلاً، فكّري في المرح الذي سيكون وراء هذا!

ردت عليها:

ـ ربما أرماندو يسعى للمرح أيضاً.

ـ إنه آخر رجل قد يدير رأسي!

ـ لن أمنعه من المحاولة، ومع ذلك لا أرى ضرورة لكل هذا... لقد سلاني في الغابة، لذا أظن أنه يجب أن تنسي أي شيء آخر... والآن غيري ملابسك وانزلي إلى العشاء وأنت على طبيعتك!

ـ اوه يا أمي... لقد آن الأوان كي يعيده شخص ما إلى حجمه ولديّ الآن الفرصة المناسبة.

ـ لن أقوى على منعك يا عزيزتي فقد تجاوزت السن القانوني.

ـ لكنني لن أقوم بشيء إن لم توافقي. ليتك سمعت ما قاله... إنه يظن نفسه هبة من الله للنساء!

ـ وإن يكن...

نظرت الكونتيسة بحب إلى ابنتها وبريق التصميم في عينيها...

ـ هل قلت ان الخدعة لن تدوم ما يزيد عن بضعة أسابيع؟

ـ أجل!

ـ لا ترتكبي هفوة غبية؟

ـ أنت تعرفينني جيداً يا أمي...

تنهدت جانيت دي روشفور:

ـ كل ما أعرفه أنك تحتالين علي... ماذا سأخبر والدك هذه المرة؟

ـ أخبريه أنني سافرت إلى أميركا لأقوم بدراسات قانونية.

ـ ألم تفكري بعد في خوض غمار السياسة؟ فأنت كاذبة بارعة!

ـ الكذب الأبيض فقط!

نادت الأم وقد سرعت لتخرج من الغرفة.

ـ ثمة شيء واحد بعد، إذا دامت هذه المهزلة طويلاً فسأضع لها الحد بنفسي.

ـ اعطني شهراً واحداً وأعدك بعده بالعودة منتصرة.

ـ وأرماندو؟

ـ سأتركه يعاني من تحطم غروره، وأعدك بأنه سيفكر بعد أن أنتهي منه في الالتحاق بالدير.

●●●

٣ ـ بداية الجحيم

المساحيق هي أفضل صديق للمرأة... لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لليليان في الصباح التالي فالكحل الأسود الكثيف أثقل رموشها الطويلة، والظلال الزهرية القاتمة اللماعة برقت فوق جفنيها، والدائرتان الحمراوان القرمزيتان استقرتا على كل خد. وما تفعله هذا هو رد على مطلب أرماندو: خففي التبرج.

ابتسمت لنفسها وهي تدير الفرشاة حول عينيها ترسم الكحل حولهما، وتضع على ثنايا فمها الجميل طبقة سميكة من أحمر الشفاه الليلكي اللون، وتمد القوس فوق شفتها العليا إلى ما يفوق الحد الطبيعي.

سألت أمها:

ـ أتظنين أن في هذا مبالغة؟

ـ هذا أفضل اعتراف سمعته منك هذه السنة!

ـ جيد إذن!

وضعت اللمسة الأخيرة على رذاذ اللون البرتقالي الذي وضعته فوق شعرها الأحمر، ثم انتعلت حذاء ذهبياً يزيد ارتفاع كعبيه عن السبعة سنتميترات. بينما ارتدت بلوزة من الساتان الأخضر وتنورة حمراء، كانت انتقتها من ثياب برتا.

هللت جانيت ضاحكة:

ـ تبدين كالببغاء الملون! أدفع أي شيء مقابل رؤية وجه أرماندو عندما يراك!

ـ سيكون الأفضل لو قرأت أفكاره!

عانقت أمها، ثم انطلقت إلى مفرق الطرق حيث اتفقا على اللقاء... وهناك وجدته ينقر بأصابعه على سقف سيارته المستأجرة بصبر نافذ.

ـ لقد تأخرت... هل واجهت مشاكل اثناء الخروج؟

ـ لا، في الواقع، لقد قلت للكونتيسة ان جدي قد صدمه باص.

ـ يا لهذا العذر المبتكر! في المرة المقبلة إن حاولت الكذب علي اختاري عذراً أكثر إقناعاً.

ـ أنا لن أكذب عليك أبداً.

ـ من الخير لك ألا تكذبي.

ارتدَّ على عقبيه ليصل إلى مقعده تاركاً إياها واقفة، فقالت:

ـ إذا كان يفترض أن أكون خطيبتك، فعلى الأقل تحلَّى بالأخلاق الحميدة وافتح باب السيارة.

ـ سأشرع في تمثيل دوري عندما تتصرفين كخطيبتي فأنا لم أرَ قط وجهاً كهذا في الصباح الباكر!

ـ هذا ليس ذنبي... فليس لدي مال و...

فقاطعها:

ـ نصف الفتيات اللواتي أعرفهن لا يملكن المال ومع ذلك فلا يبدين وكأنهن زينة الميلاد! ثم ألم أقل لك أن تخففي تبرجك؟

ـ سأبدو مضحكة دون تبرج.

ـ لكنك تبدين به مضحكة أكثر! اوه... اصعدي الى السيارة الآن وسأتولى أمرك فيما بعد.

لمحت نفسها في المرآة الجانبية وهي تصعد، فكبحت ابتسامة... لعبتها قد انطلقت انطلاقة ناجحة!

سألته والسيارة تسير بهما في الطريق الريفي الضيق.

ـ أين صديقك؟

ـ سافر ليلة أمس.

ـ لماذا؟

- لأنه لم يوافقني على ما أنوي فعله بك.

ازدادت ليليان تقديراً لصديقه، لكنها لم تظهر هذا. سألته:

- ماذا تعني بما تريد فعله بي؟ إذا كان لديك أفكار ملتوية...

- اصمتي... فهذا لن يعدو أن يكون مشروعاً تجارياً! وإذا سألتني رأيي فإنه بالنسبة لي مشروعاً بسيطاً، فما أبغيه في البدء هو أن أنقلك رأساً إلى القصر، لكن إذا رأتك أمي كما أنت فستظنني جننت... لذلك ستتوقف في روما لأشتري لك شيئاً محترماً تلبسينه.

فقالت ليليان بغضب:

- احفظ لسانك... لن أسمح لك أن تتحدث عني وكأنني قذارة.

فصحح لها:

- وكأنني قذرة. ألم يعلموك في المدرسة قواعد الكلام؟

- كانت القواعد اسوأ الدروس عندي... لكنني كنت بارعة في تشكيل المعجونة اللعينة.

- كم هو مفيد عملك هذا! سأكون لك شاكراً إن امتنعت عن قول (لعينة) بعد الآن فالسيدات لا يشتمن.

- أنت لم تسمع الآنسة ليليان... منذ أيام دعتني بـ...

فقاطعها بسرعة:

- لا تكملي... أنت تعملين عندي الآن، فانسي أمرها.

فصمتت ليليان ثم نظرت إلى صورتها في المرآة، فأخرجت مشطاً ضخماً من حقيبة يدها كي تصلح مقدمة شعرها.

فصاح بها أرماندو:

- توقفي عن هذا.إنه يبدو جحيماً دون أن تستخدمي هذا.

فقالت بجدية:

- السادة المحترمون لا يشتمون.

فضحك:

- آسف يا برتا، لقد نسيت شدة ملاحظتك.

- أنا شديدة الملاحظة إلى درجة تخولني أن أطلب منك نصف ما يتوجب عليك دفعه لي.

- ألا تثقين بي؟

- أنا لا أثق بأحد.

- ألعلك تأذيت سابقاً؟

فهزت رأسها ثم اندفعت تخترع قصة حزينة:

- والدي أنا، ترك المنزل وأنا في الثالثة وزوج أمي أنا، كان فاسداً.

- زوج أمي...

- وهل كان لك زوج أم؟

- ماذا... لا... بالطبع! ما أعنيه... اللعنة...

- السادة المحترمون...

- أعرف... لا يشتمون... حسناً لن أشتم شرط أن تمتنعي عن استخدام كلمة «أنا» بعد كل كلمة.

- أنا لن أستطيع قول أنا لست معتادة عليه... وإذا لم تقبل بي كما أنا، فلتنهِ الأمر. فالمهم ما هو موجود هنا.

وضربت على رأسها... وأكملت:

- وأنا لدي الكثير فيه.

- أنا واثق من هذا. آسف لأنني أنتقد كلامك... لكنك جميلة، وإذا ذكرت أمي شيئاً فسأقول لها انها لكنة الريف الفرنسي.

- إذن هي ستقبل بي أنا على ما أنا عليه؟

- أجل... لكنها لن ترضى بملابسك وتسريحة شعرك.

- ستفعل بي كما في فيلم «سيدتي الجميلة»؟ لقد شاهدته أنا على الشاشة منذ مدة إنه رائع!

تمتم بعض الكلمات الغاضبة فلاذت ليليان بالصمت، لأنها وجدت نفسها قد أغاظته بما فيه الكفاية. أضف إلى ذلك أنها إذا بالغت في التمثيل، فقد يصرف النظر عن الموضوع برمته، ويتخلى عنها، وهي ليست مستعدة لوداعه

بعد. سألها فجأة:

ـ أعتقد أنك لا تتكلمين الإيطالية؟

ـ لا.

ابتسمت له مرفرفة برموشها، فابتلع ريقه:

ـ هل تسمحين بإزالة أرجل العنكبوت السوداء هذه عن عينيك؟

ـ لا استطيع... إنها لي!

ـ أهي طبيعية؟

ـ صح... إنها طويلة، أليس كذلك؟

بدا مذهولاً:

ـ انظري، لا أريد أن أكدرك، لكن عينيك أجمل دون هذا كله.

ـ سرني ما تقوله.

ضحكت ثم غطت فمها بيدها بعد أن سمعته يشتم ولكن هذه المرة بالإيطالية. عندها ودت لو ترى وجهه إذا ما ردت عليه باللغة ذاتها!

بعد أن وصلا مطار «ليون» أودع السيارة في الكاراج، سألته:

ـ كم سنمكث في روما؟

ـ وقتاً يجعلك تظهرين أقل تبرجاً وألواناً.

ـ يا إلهي كم تشكو وتتأفف.

ـ لا بد من الشكاية... اسمعي يجب على الأقل أن تظهري بمظهر يبرر حبي لك.

تجاهلت قوله:

ـ أين سننزل؟

ـ لدي شقة في روما... اعطني جواز سفرك.

خافت أن يفتضح أمرها:

ـ سأقدمه بنفسي فلست غبية... اعطني بطاقتي.

أعطاها البطاقة على مضض... بعد أن انتهت سبقته إلى المدخل حيث موظف مراقبة الجوازات. وعندما أعيد جوازها تنفست الصعداء وهي ترجو ألا

تتعرض إلى المشكلة ذاتها عند الوصول!

لكن لسوء الحظ هذا ما حصل، فما كان منها إلا أن تظاهرت بأنها تفحص حذاءها لتتأخر عن أرماندو قليلاً ثم وقفت في الصف لئلا يرى جوازها عندما تقدمه.

كانت سيارة الحمراء «اللمبرغيني» في موقف المطار، لم يمضِ كثير من الوقت حتى كانا في قلب مدينة روما يمران بساحة «بيازا فينزيا».

لم تكن ليليان بحاجة لإدّعاء البهجة برؤية معالم هذه المدينة التاريخية ولا لادّعاء الدهشة.

عندما وصلا إلى مجمع سكني هادىء يقبع فوق تلة تشرف على المدينة. خاطبت نفسها قائلة: «هذا ليس مكاناً سيئاً لشخص ماجن لعوب». نقلهما المصعد إلى الطابق الثاني حيث يقع منزله الفاخر المدهش.

المنزل يليق بسمعة صاحبه! جدرانه مطلية باللون الأزرق القاتم وللسجاد والسقف اللون نفسه. فيشعر المرء عندما ينظر إلى السقف بأنه ينظر إلى السماء ونجومها وهو يستلقي تحتها! وقد يحسب نفسه مسافراً إليها كذلك.

قال لها أرماندو:

ـ بعد أن تنتهي من تأمل المنزل، تعالي إلى غرفة الجلوس لتنضمي إلي!

أجابته بلكنة ملتوية قدر استطاعتها:

ـ حاضر.

عندما انضمت إليه وجدت القهوة بانتظارها. تناولت منه فنجاناً وراحت ترشفه ولمّا أوشكت على الانتهاء منه أقبلت عليهما مدبرة المنزل تسألهما عما إذا كانا سيتناولان الطعام في المنزل. فكان أن أجاب أرماندو ببرود:

ـ حضري لنا شيئاً بارداً. فلا أعرف متى نعود.

وضع فنجان قهوته ووقف:

ـ فلنتطلق يا برتا... أمامنا الكثير من العمل فعلينا التبضع لكن من أين نبدأ؟ فأنا لا أعرف كيف ألبس امرأة!

هو بالتأكيد يعرف فقط كيف يخلع عنها ثيابها... التقت عيناه بعينيها، فأحست بأن هذا ما يفعله فكرياً معها! وكلماته التي تلت أكدت ظنونها:

ـ لديك جسد جميل، لكنك تظهرينه بشكل قبيح.

ـ أين القباحة في قميص وتنورة؟

ـ هذا يتوقف على كثير من الأشياء... وفي مثل حالتك، الساتان الأخضر، والتنورة الحمراء ليس ما ترتديه المرأة نهاراً!

أمسك بالقماش ليدل على اللون، فكان أن لامست أطراف أصابعه بشرتها... وكان أن ارتجفت لأنها أحسّت بشيء غريب.

ـ هيا بنا... فلنبدأ بأفخر محلات الثياب، ومع شيء من الحظ سنجد معظم ملابسك في محل واحد.

ـ ماذا عن الملابس التي أحضرتها معي؟ لن أرميها في الشارع؟

ـ ارميها إذن في سلة المهملات!

ـ يا لهذا القول السخيف! كلفتني ثيابي أنا ثروة!

ـ ثيابي...

ـ لست أهتم بثيابك اللعينة...

رفع أرماندو يده إلى رأسه يائساً... وكان عليها أن تكبح قهقهة كادت تفلت منها، وسألته:

ـ هل تتألم؟

ـ أجل... الآن اصمتي!

حذرتها عيناه إلى أنه قد اكتفى. لحفت به ساخرة، وهي تحلم بطرق فعّالة لامتحان المزيد من صبره.

رافقته في شوارع المدينة الشهيرة وهي تُغدق سلسلة «الآن» و«الأوه» أمام كل واجهة تعرض أجمل الملابس. بينما استمر أرماندو بتوتر يحثها على السير. عندما توقف في النهاية، وجدت نفسها أمام أكبر وأشهر دور الأزياء في العالم.

قالت كاذبة:

ـ ما هذا المحل القديم العفِن؟

قالت قولها ذاك ثم جرّته إلى واجهة تقع على بعد ياردات كان معروضاً فيها ثوباً أبيض مزركشاً.

ـ يعجبني هذا أكثر.

ـ إنه ثوب نوم!

ـ لكنه أجمل من أن يضيع في النوم.

تمتم بالإيطالية مغتاظاً:

ـ لك أن تخلعيه قبل النوم.

ابتسمت له بغباء ممثلة دور البريئة.

وأخيراً أدخلها إلى محل قريب، أسرعت فيه فوراً إلى مكان تشجيب الثياب تاركة أرماندو يتحدث بهدوء إلى البائعة.

ـ أليس هذا الثوب عظيماً؟

أمسكت فستاناً من «التانتا» القرمزي الذي تناقض لونه مع شعرها الأحمر المصبوغ.

سارع أرماندو إليها، فاقداً لأول مرة لياقته الاجتماعية التي تحملها عبر الساعات الأخيرة من رفقتها له. وقال لها من بين أسنانه:

ـ أمُصابة أنت بعمى الألوان؟ أرجو منك أن تدعيني أختار لك الثياب.

ـ حاضر يا سيدي.

ـ أرماندو!

ـ حاضر أرماندو سيدي!

ـ أرماندو فقط.

بدا يائساً وهو يعود إلى البائعة.

سمحت لهما كتيبة أن يختارا لها ثيابها، ثم دخلت لتجربها. كان لأرماندو ذوق رفيع فاخر لكنها لم ترتد الثياب بالطريقة المناسبة بل ارتدتها دون ترتيب، ثم خرجت تلوحها فوق خصرها في محاولة لتضييع كل تأثيرها. لكنها مع ذلك لم تستطع اخفاء جمال جسدها الذي برز تحت القماش الحريري وقد بدا لها

ذلك واضحاً من بريق عيني أرماندو.

سألته بعد أن أشار إلى البائعة:

ـ هل لي أن أختار أنا شيئاً الآن؟

فرد بلطف:

ـ تفضلي.

وهبته إحدى أجمل ابتساماتها ثم تقدمت إلى مشاجب الثياب فجذبت من بذلة تنورة حمراء فاقعاً لونها، ثم قميصاً بنفسجياً من بذلة أخرى، وسترة بيضاء من ثالثة.

ـ واو! إنها حقاً رائعة!

قالت البائعة صائحة برعب:

ـ ولكنها غير متناسقة.

ـ وإن يكن؟

ـ وإنها لثلاث بذلات يا آنسة، لا لواحدة، ويجب دفع ثمن البذلات الثلاث.

ـ إذن ما رأيك بهذا؟

رمتها على الطاولة ثم أخرجت فستاناً أبيض وأحمر يتوازى فيه اللونان على شكل خطوط فقال لها أرماندو مبتسماً:

ـ ستبدين فيه مثل ستارة الشرفة... أعيديه إلى مكانه واكتفي بما اشتريته لك.

أخيراً خرجا إلى الشارع، بعد أن وعدتهما البائعة بإرسال المشتريات إلى المنزل بعد ساعة... قالت ليليان بجذل:

ـ أحب أن أشتري بعض أدوات الزينة.

أحست بالرضى عندما أجفل أرماندو.

ـ أنا واثق أن لديك الكثير منها!

ـ لكنها ليست أفضل الألوان.

نظر إليها نظرة مشبعة بالمعاناة والألم ثم قادها إلى محل شهير يبيع أدوات

التجميل... أسرعت فيه فتاة شابة جميلة إلى مساعدتهما.

قال لها أرماندو:

ـ أرجو منك أن تقترحي أصنافاً جديدة لهذه... الـ... الشابة.

نظرت المرأة مصدومة إلى وجه ليليان، ثم فتحت سلسلة من الأدراج، وضعت صفاً من الزجاجات والأنابيب على الطاولة، شارحة عمل كل منها.

قال أرماندو بنفاذ صبر، وهو يمد يده إليها ببطاقة الاعتماد:

ـ سنأخذها كلها.

صاحت به ليليان:

ـ هاي توقف... ألن تشتري لي بعض العطور؟

صرّ على أسنانه:

ـ وماذا تفضلين؟

ـ شيء مثير.

تبادل أرماندو والبائعة النظرات، وقالت المرأة بابتسامة:

ـ لكن عطورنا ليست كذلك. أقترح لك يا آنسة هذا العطر.

ـ لا شكراً... أريد العطر الذي تستخدمه الآنسة ليليان إنها تقول إنه «أغلى العطور ثمناً في العالم» وإن له رائحة زكية!

فقالت المرأة:

ـ هل هو «جوي»؟

ـ أجل... هذا هو!

فتمتم أرماندو:

ـ حسناً.

هز رأسه للمرأة كي تضيف العطر إلى باقي المشتريات. لكن «برتا» لم تكن سهلة الارضاء، فدمدمت متذمرة:

ـ هذه زجاجة صغيرة لن تكفيني طويلاً... أليس عندكم زجاجة كبيرة؟

فما كان من البائعة إلا أن قدمت لها زجاجة أخرى أكبر حجماً. أما أرماندو فقد نقدها الثمن تعساً. ثم أخرج ليليان من المحل قبل أن تطلب شيئاً

آخر.

سألته:

- أين سنذهب الآن؟

- إلى البيت قبل أن تفلسيني!

فضحكت:

- عندها تتزوج الآنسة «ل» لتدعمك.

- قد أبيع أربطة الأحذية قبل أن أقبلها زوجة.

عندما وصلا إلى الشقة وجدا المشتريات كلها قد سبقتهما.

غاص أرماندو متعباً في أقرب مقعد... لكن ليليان لم تكن كذلك البتة، بل كانت معنوياتها مرتفعة لحصولها على الثياب الجميلة وأدوات الزينة. شرعت تضع كل ثوب على جسدها فتضمه وتجوب الغرفة به. ثم سألته بخفة:

- هل لنا أن نذهب إلى مكان مميز...؟ أريد أن أعرض ثيابي.

- كان يومنا مرهقاً لك.

- لا أشعر بالإرهاق أبداً.

فتنهد:

- حسناً... سأحجز طاولة في مكان ما وأتصل بفيتوريو لينضم إلينا.

- ظننته غاضباً منك؟

- لعله قد تجاوز مرحلة الغضب الآن، على كل سيكون متلهفاً لرؤية ما فعلته بك. لذلك انتبهي لتصرفاتك... أقترح عليك أن تخلدي إلى الراحة على أن تأتي إلى هنا في الثامنة تماماً.

النظرة المتألمة التي رماها بها جعلتها تقسم أن تجعل الأمور أكثر إيلاماً له قبل نهاية الأمسية.

●●●

٤ - قليل من الحظ يكفي

بعد الثامنة بدقيقة ولجت ليليان غرفة الجلوس... لكن أرماندو لم يلاحظ ثوبها الجديد، ولا عطرها الذي ضمخت نفسها به. ذلك أن اهتمامه كله انصب بذعر على جفنيها المدهونين باللون الأخضر اللماع.

- تبّا!

أمسك يدها متجهم الوجه ثم جرى بها إلى الحمام فالتقط قطعة قماش ملأها بالصابون ومسح بها بخشونة فوق وجهها. وقال بغضب:

- لقد أنفقت ثروة لشراء أدوات الزينة لك. وها أنت لا تجيدين حتى كيفية استخدامها!

فحاولت التملص منه:

- أحب زينتي القديمة أكثر. أنت تؤلمني!

- كوني شاكرة لأنني لم أسلخ جلدك!

لكن هذا ما كان يفعله بها تقريباً. استسلمت له بخنوع، مقتنعة بأنها استنفذت أقصى ما لديه من طاقة على الصبر.

أمسكت أصابعه ذقنها وقرّب وجهها منه حتى خافت أن تنظر إليه فأغمضت عينيها. وسمعته يتمتم بالإيطالية:

- أنت جميلة أكثر دون هذا الهراء. وللأسف ليس لديك العقل الذي يتماشى مع جمالك... يا إلهي... لا أخالني أنام مع امرأة مثلك!

فتحت عينيها وقد جعلهما الغضب تبرقان مثل الألماس. ليس لدي العقل لإقامة علاقة معي... هـه؟ سترى يا أرماندو دوفيللي! فعندما أنتهي منك

ستجثو على ركبتيك تتوسل برتا البلهاء الصغيرة كي تتزوجك!

اساء تقدير أفكارها... فتراجع وقال لها بالفرنسية:

ـ آسف لأنني فركت وجهك بقوة.

ـ يجب أن تكون آسفاً.

ـ توقفي إذن عن دهن نفسك كالمهرج. أعيدي زينتك وأسرعي.

بعد خمس دقائق عادت إليه وقد وضعت لمسة خفيفة من أحمر الشفاه على شفتيها، وقليلاً من الكحل في عينيها مما جعلها تبدو متزنة ومحتشمة. لكنها لم تفعل شيئاً لشعرها فلم يحن الوقت بعد، لذا تركته يلمع فوق رأسها وكأنه جزرة الربيع!

قادها أرماندو إلى السيارة، فراحت عيناها تتأملان بدهشة متعمدة كاتدرائية سان بيتر ومدينة الفاتيكان، نهر التيبر الذي يقسم المدينة نصفين، والأرصفة والأدراج القديمة المليئة بالفن والفنانين.

قالت وقد توقفا عند إشارة سير:

ـ إنه ازدحام باريس.

فأشار إلى الأرصفة المكتظة بالسواح والمقاهي:

ـ هذه أفضل الأماكن لقضاء الأوقات.

ـ لدينا الأشياء نفسها... فلستم وحدكم من يمتع نفسه.

ـ أنا واثق من هذا.

لم يحاول محادثتها بعد ذلك بل لاذ بالصمت وهو يوقف سيارته في زقاق جانبي، ويقودها عبر شارع ضيق وصولاً إلى مطعم صغير.

أخفت ليليان خيبتها، فقد كانت تتطلع إلى وجبة فاخرة لكن يبدو وكأن أرماندو يخشى الالتقاء بأحد أصدقائه فيراها برفقته. لكن عندما دخلا المطعم أدركت أنها اساءت الحكم عليه ولم تنصفه فقد تبين لها أنه أحد أفخم المطاعم في روما.

كان فيتوريو بانتظارهما على طاولة في زاوية الغرفة الضيقة، فوقف لدى

اقترابهما، وراح يمعن النظر في ليليان مقيّماً. تمتم لأرماندو شيئاً لم تسمعه، فهز كتفيه وقدمها إليه.

ـ فيتوريو أقدم لك برتا مونسون، خادمة الآنسة ليليان الجميلة!

رفع فيتوريو يدها إلى فمه:

ـ يشرفني أن أتعرف إليك.

سألها عن رأيها بروما، فقالت بخفة:

ـ أنا لم أرَ شيئاً بعد... كنا مشغولين بالتسوق!

فقال فيتوريو ساخراً:

ـ هذا عار عليك يا أرماندو، على الأقل اصحبها إلى مطعم فاخر لتتغديا.

فرد عليه صديقه:

ـ كانت الثياب أولى اهتماماتنا... كلفتني ثروة!

ردت ليليان بغضب:

ـ لم أطلب منك صرف المال عليّ.

ـ أي مال؟

فصاحت:

ـ المال هو المال... لا أريد أن يسيء صديقك بي الظن فيعتقدني أسعى وراء المال.

ـ هو لن يخطىء إن اساء الظن بك... لقد ساومتني بشدة لتقبلي القيام بهذا الدور.

ـ ما كنت مضطراً إلى القبول.

فقاطعهما فيتوريو:

ـ ما رأيكما بكوب عصير قبل الطعام؟ عصير مع مياه غازية يا برتا؟

ـ اووه... أجل... كم أحب فقاقيع المياه الغازية؟

رفع أرماندو حاجبه بينما كانت ابتسامة فيتوريو لطيفة وهو يذكر السّاقي بما يريد... ثم انغمس الرجلان في حديث بالإيطالية فتململت ليليان وتظاهرت بالضجر... ليتها لم تكذب في شأن فهم لغته لأنها كانت ستشاركهما

www.elromancia.com

الحديث!

يا لهذا الحديث المثير للاهتمام! . فقد تراوح فيما بين الوضع السياسي في أوروبا، والانتخابات المقبلة في انكلترا، والوضع الاقتصادي في أميركا اللاتينية، إضافة إلى آخر أخبار البورصة.

استنتجت أن البورصة هي مهنة فيتوريو، وقد تبين لها من طريقته في الحديث عن فروع الشركة في العالم أنه شاب ناجح. لكن من المؤكد أن أرماندو لن يختار صديقاً فقيراً.

استقرّ نظرها على أرماندو. إنه وسيم قادر على اختيار أفضل وأغنى وأجمل الوريثات! فهي لولا استراقها السمع إلى ما قاله لصاحبه لوقعت في حبه... توترت عندما وصلت إلى تفكيرها هذا، فشهقت بصوت خفيض لاحظه فيتوريو، فتحول على الفور إلى التحدث بالفرنسية:

ـ أرجو أن تعذرينا... ما كنا مهذبين لأننا تحدثنا بالإيطالية.

ـ الرجال عادة غير مهذبين. هم يظنون أن هذا حقٌ لهم!

اصطبغ وجهه احمراراً من الحرج، ولكن أرماندو ضحك:

ـ كان يجب أن أحذرك من لسانها السليط يا صديقي... إنه أحدُّ من ذكائها!

فردت عليه:

ـ ومظهرك أنت أفضل من أخلاقك.

قاطعهما فيتوريو:

ـ هاي ما بالكما؟... من المفروض أنكما خطيبان لا متحاربان!

فقال أرماندو:

ـ أنت على حق... توقفي عن إثارتي يا برتا.

قال له فيتوريو بالإيطالية:

ـ أنت من أثرتها، أنت تجلس هنا متجاهلاً الفتاة المسكينة، ثم تتساءل لماذا غضبت!

سعلت ليليان في يدها لتخفي ضحكة. عرفت أنه لو كان لأرماندو أخلاق

صديقه الحميدة لما اختلقت هذه التمثيلية كلها.

قطع فيتوريو عليها أفكارها:

ـ حان وقت الطعام... لا شك في أنك جائعة.

نظرت إلى أرماندو نظرة إدانة:

ـ بل أكاد أموت جوعاً.

فتمتم:

ـ كم تشتكين. ليتني لم أفكر في هذه الخطوبة اللعينة قطّ.

أرجعت ليليان كرسيها إلى الخلف بقوة:

ـ حسناً... اعطني مالي وأنا...

فصاح بها من بين أسنانه:

ـ لا تهددينني... عقدنا صفقة إن لم تلتزمي بها فلن تنالي فلساً واحدا مني. فهل هذا واضح؟

ـ نعم يا سيدي... لكن إن لم تكن لبقاً فسوف...

ـ اصمتي... واختاري ما تريدين من طعام!

تدخل فيتوريو:

ـ أتحبين أن أساعدك على الاختيار؟

فهزت رأسها موافقة. وضع لائحة الطعام أمامها واقترب منها ليشرح لها أنواع الطعام.

دهشت ليليان لطول وكثافة أهدابه، التي كانت أغمق لوناً من شعره بدرجات. وجدته وسيماً إلى حدّ كبير ولولا تصميمها على تلقين أرماندو درساً لن ينساه، لتمتعت بالتعرف إليه. لاحظت أن أرماندو يحدق إليهما، فدفعها حب الإزعاج إلى ترطيب شفتيها بطرف لسانها وابتسمت لفيتوريو ابتسامة مغرية أجفلته... بقي فيتوريو جامداً بضع لحظات ثم استوى في جلسته مبتعداً عنها. فسأله أرماندو بالإيطالية:

ـ ماذا دهاك بالله عليك؟ أنت تحدق إليها وكأنك لم ترَ النساء من قبل.

ـ نساء بهذا الجمال... لا.

www.elromancia.com

ـ إذن... ابتعد عنها حتى انتهى منها، ثم خذها فهي لك!

غلى الدم حاراً في شرايين ليليان... ليته يعلم أنه بذلك يحفر قبره بيده! حسناً... ستريه! التفتت إلى فيتوريو فأطلقت ابتسامة أخرى، أجفلته للمرة الثانية... سألها:

ـ أتريدينني أن أترجم لك لائحة الطعام ثانية؟ أم أنك قررت؟

ـ أظنني سأطلب «الهوت دوغز» والبطاطا المقلية.

فغر فمه:

ـ أنا... آه... أنا آسف، فلن تجدي طلبك هنا.

ـ يا للأسف! لا يبدو مطعماً فاخراً. ما دام بإمكانك شراء النقانق مع البطاطا أينما كان. فلماذا لا نترك هذا المطعم ونذهب إلى آخر يقدم وجبات نأخذها معنا؟

بدا أن شريانا سينفجر في جبهة أرماندو، فما كان من فيتوريو إلا أن قال:

ـ هذا أحد أفضل مطاعم روما يا برتا، وأنا واثق من أن الطعام سيعجبك عندما تتذوقينه. لماذا لا تدعينني اختار لك؟

تبين أن ما طلبه لها كان كبد الأوز المقلي والبطاطا المهروسة، قطعاً من لحم الغنم مع رقائق المعجنات... أما أرماندو فتجاهلها وطلب البفتاك مع الخضار المسلوقة.

كانت تترقب فرصة أخرى للنيل منه وقد وجدتها عندما مدت يدها لتتناول كوب العصير الفاخر وترتشف القليل منه.

هزت كتفيها بمأساوية:

ـ أعـ! طعمه كريه! سأطلب كولا بدلاً منه.

فقال أرماندو زاجراً:

ـ ستشربين هذا.

ـ لا... لن أشربه... طعمه كطعم الخل.

ـ هذا لأنك لست مثقفة ثقافة اجتماعية، فمثل هذا الشراب هو جزء من عملك. وأمي ستتوقع منك شربه.

ـ أتريدني أن أتقيأ؟

لم يستطع فيتوريو منع ضحكة، ولكن توتر أرماندو جعله لا يرى ما يُضحك، فأدار رأسه مشمئزاً. سألته:

ـ كم سنمكث عند أمك؟

ـ قلت لك... حتى أقنعها إنني لا أنوي الزواج من ليليان.

فضحكت:

ـ أتظن أنك ستتمكن من إقناعها بأنك ستتزوجني... أنا لست سيدة مجتمع... وكل ثياب الدنيا لن تجعلني سيدة.

فقاطعها فيتوريو:

ـ من قال إنك لست بسيدة؟ أنت سيدة جميلة جداً.

ـ لكن صديقك لا يوافقك الرأي.

فقال أرماندو ساخراً:

ـ لا أوافقه؟

ـ هذا ما قلته... أنت لا توافقه رأيه.

ضحك فيتوريو:

ـ لقد التقيت ندّ لك في العناد يا أرماندو.

فتمتم أرماندو متجهماً:

ـ مضحك جداً... كل ما يحدث بدأ يفتك بأعصابي.

فقالت ليليان:

ـ فلننه الأمر إذن... أخبرتك عن استعدادي للعودة عن الاتفاق.

ـ وأنا قلت إن عليك المضي في الأمر... أفضل ما قد تفعلينه هو إقفال فمك أمام والدتي.

فسألته:

ـ هل تحب أن أستخدم لغة الإشارات؟

أسفت لأن وصول الخادم منعه من الرد وجعل اهتمامه ينصب عليه.

عندها انحنى فيتوريو لينظر إلى عيني ليليان هامساً:

www.elromancia.com

- لا تهتمي به... لقد مر في ظروف عصيبة مؤخراً.

- كيف؟

- عمل بشكل دؤوب خلال السنوات الثلاث الماضية. فالسفر بين إسبانيا وإيطاليا قد بدأ يرهقه.

إنه يعمل بكد إذن! رغبت في أن تستفهم عنه أكثر من فيتوريو وقد قررت استغلال الفرصة الأولى لمعرفة ما تريده. التفت أرماندو إلى صديقه قائلاً بالإيطالية:

- هي على الأقل تعرف آداب المائدة... لا شك في أنها تعلمتها من دي روشفور.

فرد فيتوريو:

- معظم الناس في هذه الأيام يعرفون آداب المائدة.

- لكن هذه الفتاة ليست كمعظم الناس... إنها فريدة من نوعها! كان يجب أن ترى كيف أرادت الخروج معي الليلة.

- أنت من اخترتها... ثمة نساء كثيرات قد يلبين طلبك. تينا مثلاً... كانت ستقفز جذلاً لو عرضت عليها هذه الفكرة.

- بل قل كانت ستلتصق بي كدودة العلق... أنا الآن في مأمن من ذلك فبإمكاني التخلص من هذه متى شئت!

عندما انتهي منك... وتصبح طوع بناني... لن تقدر على رؤية شيء من كثرة تراب الأرض! برقت عيناها للفكرة. فرفعت كأسها، ثم لوت اصبعها الصغيرة بشكل مبالغ فيه... فقال لها أرماندو بسرعة:

- لا تفعلي هذا؟

- أفعل ماذا؟

- لا تلوي اصبعك... أعيديه كما كان.

- هكذا يا برتا.

أمسك فيتوريو بكأسه وقد لف كل اصبع حوله...

فقالت:

- أنت لطيف جداً في مساعدتي.

أدهشها الاحمرار الذي صبغ وجهه حتى ظنت أن تأثيرها عليه أكبر مما ظنت. ولكنها غريبة بالنسبة له، ولعله يجد كلامها حاداً وغريباً. وهبته إحدى ابتساماتها مع العلم إنها لا تحب الرجال الشقر قط... لكن في هذا الرجل شيء ما... التفت فيتوريو إلى صديقه وقال محذراً بالإيطالية:

- لا تقسُ على الفتاة... إنها تبذل قصارى جهدها.

- هذا ما يخيفني لأن أمي ستتساءل عما أراه في هذه البلهاء المفترض بأنني أحبها!

- إنها تعرف شغفك بالوجه الجميل، وهذا الوجه جميل بشكل استثنائي. لذا توقف عن النظر إلى الطفلة المسكينة وكأنك تريد خنقها!

فتنهد أرماندو:

- أنت محق... وإلا سأخسر بضعة آلاف من الفرنكات.

سألت ليليان مقاطعة:

- ماذا ستتناول من حلوى؟ هل يمكن الحصول على فطيرة مغطاة بالدبس السكري؟

أجابها فيتوريو:

- ليس هنا... لماذا لا تجربين الفطائر السويسرية؟ إنها نوع من القطائف تقدم مع عصير المارينيه.

- عصير ماذا؟

- عصير البرتقال.

فضحكت:

- تبدو لي رائعة فأنا أحب البرتقال.

لم يستطع كبح ضحكة وهو يطلب لها وله مبتسماً أما أرماندو فاكتفى بالقهوة.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما خرجوا من المطعم.

ترنحت «برتا» قليلاً عندما صدمها الهواء البارد. فسألها أرماندو:

- ما بك... هل رأسك يؤلمك؟

- لا... أنا تعبة فقط.

دون أن تتوقع، وضع ذراعه تحت ذراعها ثم قادها إلى السيارة فساعدها على الصعود. بينما انحنى فيتوريو نحوها ليشاهد وجهها:

- حظاً سعيداً يا برتا. لا تخشي من مقابلة السيدة دوفيللي... لأنك ستجدين من السهل الاتفاق معها أكثر من ابنها!

فقالت بسذاجة:

- قد أتفق مع أي إنسان إلاّ!

فضحك فيتوريو الذي قال له أرماندو:

- زرنا لقضاء نهاية الأسبوع.

- قد أزوركم دعماً لبرتا على الأقل!

قال أرماندو متجهما وهو يصعد السيارة:

- أنا من سيحتاج إلى الدعم!

سألته برتا بعد أن أصبحا في الشارع الرئيسي:

- هل أنا صعبة المراس حقاً؟

- أكثر بقليل من بقية النساء.

- ألا تحب الجنس اللطيف؟

- في بعض الأوقات فقط، أما في سائر الأوقات فلا أطيقهن.

- وعندما تتزوج؟ إن لم تعرف زوجتك جيداً فلن تنجح علاقتكما.

- هذا كلام جوهري لأنك أنت التي تقولينه.

- لقد سمعته على الشاشة الصغيرة وهي تعلمنا الكثير.

- حسناً سأقبل بما قلته.

- كيف كانت الليلة؟

- لا بأس بك. مع أنني لا أستطيع مدح نفسي... فقد كنت فظاً معك، وأنا أعتذر.

رفع يدها فجأة ليقبلها.

هذه هي المرة الثانية التي تُقبّل يدها فيها اليوم... احذري! قد تجدين بعض التسلية في إيقاعه في حب برتا... ولكن الكارثة إذا وقعت أنتِ في حبّه!

- ماذا إن لم تحبني أمك؟

- ستحبك. ستحبك! هي ليست غولاً ولا شك في أنها متوترة لأنها ستقابلك.

- ماذا أخبرتها عني؟

- إنك خالية من العيوب، ساذجة، ولذيذة تماماً.

فضحكت:

- هكذا يقول الرجال دائماً عن الفتاة التي يريدون الزواج منها!

- لم أمرّ قبلاً بمثل هذه التجربة، لذلك لا أعرف شيئاً عنه.

- ولا أنا... كل ما كان لدي اصدقاء فقط.

- أنا واثق من أنهم لم يريدوا ازعاج أنفسهم بك.

أوقف السيارة أمام المبنى الذي يسكنه، فهزت كتفيها، وخرجت من السيارة دون أن ترد. وفي اللحظة التي فتح بها باب شقته دخلت متمتمة:

- تصبح على خير.

- لا ليس بهذه السرعة.

ثم شدّها إليه بسرعة ودفعها إلى ذراعيه ليعانقها.

كانت ردة فعلها الأولى أنها حاولت الانسحاب، لكن حركة ذراعيه حولها، أعطتها شعوراً غريباً. فارتجفت بين يديه واستجابت لعناقه وليديه اللتين راحتا تجوبان جسدها وتقربانها منه حتى شعرت بإثارته تزداد شيئاً فشيئاً.

خلال لحظات مجنونة فكرت في أن تهبه ما يريد. يبدو كأنه ربح المعركة ثانية فأبعدها عنه، وقال بخشونة:

- هذا لن ينفع... فأنت التعقيد الذي لا أحتاج إليه في حياتي!

www.elromancia.com

ردت انتقاماً لكرامتها.

- الحظ شيء رائع!

- لا حظ معك يا برتا... بل أمور مؤكدة!

- أيها النذل!

فضحك:

- أرجو أن لا تكوني ممن يسير في نومه، لأنني سأقفل بابي جيداً!

فاستدارت بغضب وأكملت طريقها إلى غرفتها، تهدّىء نفسها وتترك العنان لأفكارها. لكن الاتجاه الذي سارت فيه لم يعجبها، فهي كانت تدور حول وجود أرماندو في القاطع الآخر من الممر... حيث تخيلته في الفراش، جسده الأسمر شبه عار.

تقلبت في الفراش قلقة، مع أنها حاولت إبعاد أفكارها إلا أنها علمت أنها تتوق لرؤيته وللمسة منه، ولقوة ذراعيه. لقد قابلت الكثير من الرجال الجذابين، لكن لم يؤثر فيها أي منهم كما يفعل هو.

عند هذا الحد... أغمضت عينيها موصدة الباب أمام فكرة الاعتراف بأن رغبتها فيه قد لا تعدو أن تكون رغبة عادية كما حاولت أن توهم نفسها.

●●●

٥ ـ هل القدر حليفها؟

صورة البطاقة البريدية لقصر «دوڤيللي» المعلقة على مرآة طاولة زينة ليليان منذ مدة طويلة، لم تساعدها أو تهيئها لرؤية الصرح الحجري الذي واجه عينيها عندما انعطف أرماندو بسيارته إلى طريق فرعية يظللها صفان من الأشجار الخضراء أوقف سيارته في نهايتهما.

كانت تعتقد دوماً أن قصرها جميل إلا أنه ليس بشيء مقارنة مع ما تراه من جمال وأبهة هذا القصر المشيّد الأبراج الذي تعلو أعمدته قناطر جميلة. الآن فهمت سبب تلك البرودة والفتور عندما علم أرماندو بأنه ورث قصر دي روشفور.

أساء فهم أفكارها وصمتها فقال:

ـ لا تتوتري... نفّذي ما أطلبه منك وعندها سيكون كل شيء على ما يرام.

هزت رأسها وهي تخرج من السيارة وما هي إلا لحظات حتى قطعا بصمت باحة مفروشة بالحصى إلى سلم حجري عريض قادهما إلى باب ضخم مصنوع من خشب السنديان.

فتح خادم عجوز معقوف الأنف الباب، فقال أرماندو بسرعة:

ـ بيدرو في خدمتنا منذ زمن لا أذكر مدته.

حياهما الخادم بابتسامة غضنت عينيه وغطت مساحة من وجهه. هذه نقطة جيدة لصالح أرماندو... سمعت بيدرو يقول ان الدونا دوڤيللي توشك على النزول بعد وقت قصير وهي أوصته بمرافقة الآنسة إلى جناحها.

www.arrotaeed.com

فابتسم أرماندو له:

ـ أنا سأرافقها.

قاد ليليان عبر قاعة واسعة، ذات أرض حجرية يدفئها السجاد، ويكسو جدرانها السجف المزين بالصور.

عند أعلى السلم، تفرّع الممر يميناً ويساراً، فقادها عبر الجناح الغربي إلى شقة تطل على الحديقة الرسمية. قال لها، أمام ذهولها الذي تدعيه كلما نظرت إلى شيء ما في هذا الأثاث المطلى بالذهب.

ـ أظنك ستجدين كل ما تحتاجينه هنا.

أخذت تنتقل من غرفة النوم إلى الحمام وهي تقول:

ـ يا إلهي قد تدفع أمي أي مبلغ لترى منزلاً كهذا؟ حمام فيه مغطس! أكان في الحمامات مغطس في الأيام الغابرة؟

فرد عليها ببرود:

ـ لقد جهزت الحمام به منذ عدة سنوات.

ـ لا ريب في أنه كلفك ثروة... أين تجد المال؟

ـ لديك صورة سيئة عني يا برتا... فأنا على عكس ما تظنين، أعمل عملاً شاقاً لكنه ناجح أيضاً.

ـ لكنك لن ترفض زوجة غنية؟

ـ لن يرفضها معظم الرجال!

ـ فلماذا إذن رفضت الآنسة ليليان؟

ـ إن لم تخني ذاكرتي فأنت أخبرتني أنها كانت تهم برفضي!

فقالت بإغواء:

ـ قد تغيّر رأيها لو رأتك عن كثب.

ـ هل لنا أن نترك مناقشة أمر الآنسة ليليان ولنركز على إقناع أمي بأنني أحبك.

دارت في الغرفة قليلاً:

ـ سأفعل ما بوسعي... لم أحسبني سأرى نفسي في قصر حقيقي! أتمنى

لو يراني جميع من في قصر دي روشفور.

ـ دعك من قصر دي روشفور... أنت خطيبتي الآن.

يبدو أن الفكرة أساساً شديدة الوقع عليه. سألته متظاهرة بالبراءة وقد رأته يهز رأسه:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء بعد. لكن عندما أفكر فيما أوقعت نفسي فيه... خلتني قادراً على أن أصوغك في القالب الذي أريد لكنني وجدتك صلبة كالصخر!

ـ ألا تظن أن حيلتك ستنجح؟

ـ يجب أن تنجح... الأفضل أن أذهب لأعدّ أمي لاستقبالك.

تقدم إلى الباب، فقالت:

ـ إنك تظهرني وكأنني عملية جراحية.

ـ قولي عملية ضخمة! آه ليتني لم أضطرّ إلى خداعها...

تنهد، ثم صرف الفكرة من رأسه.

ـ سأراك بعد ربع ساعة في غرفة الجلوس... إنها الغرفة التالية بعد المكتبة.

ـ هل أغير ثيابي؟

ـ لا داعي إلى ذلك.

ـ لا أظن أن لهذا أهمية على كل الأحوال... فثوب فاسد جديد سيكون كالآخر.

ـ أيتها الفاسدة الناكرة للجميل!

ضحكت ليليان بعد أن أقفل الباب وراءه، ثم توجهت إلى المرآة لتضع لمسات رقيقة هذه المرة على وجهها... تساءلت عمّا إذا كانت الدونا دوفيللي ستعرفها أم لا. فالنساء عموماً أشد ملاحظة من الرجال... أحست فجأة بكره لهذه التمثيلية الهزلية ويبدو أن أرماندو بدأ يكرهها أيضاً. تمنت للمرة الأولى لو أنها لم تقبل بها.

جعلتها دقة خفيفة على الباب تستدير باتجاه الباب لتفتح فواجهتها امرأة

متوسطة العمر شيباء الشعر راحت تحدق بعينيها السوداوين فيها بطريقة أجفلتها. لا بد أنها والدة أرماندو...

قالت لها المرأة بلكنة فرنسية ساحرة:

ـ أنت برتا دون شك.

ـ أجل... وأنت... والدة أرماندو.

ـ صحيح... كنا سنلتقي رسمياً بعد قليل، لكنني أظن أن الخير لنا في تبادل أطراف الأحاديث أولاً.

تنحت ليليان عن الباب لتفسح المجال للدونا في الدخول فكان أن جلست على مقعد وثير، بينما جلست ليليان على كرسي طاولة الزينة.

ـ لقد دهشت عندما اتصل بي أرماندو يخبرني عن الخطوبة فهو لم يتحدث عنك قط... وأنا... وأنا لم أعلم أنه كان جاداً في علاقته مع أية فتاة.

ـ لقد حدث هذا فجأة... تعرفين الرجال! يكرهون أن يقعوا في الفخ!

ـ حسناً لقد أوقعت ولدي فيه دون شك. فأنا لم أسمعه من قبل يتحدث عن فتاة بحب كما يفعل حالياً.

ـ صدقاً؟ ماذا قال؟

ـ انك جميلة خالية من العيوب، لديك روح مرحة، وانه يحبك. وبعد أن قابلتك الآن فهمت سبب وقوعه في حبك. أنت فعلاً جميلة.

ساد صمت مطبق شعرت خلاله ليليان بتأنيب ضمير عنيف لأنها تخدع هذه المرأة الفاتنة وكادت توشك على أن تعترف بالحقيقة لولا شروع الدونا في إتمام حديثها.

ـ يقول أرماندو انك فقدت والديك، وإن لا أقارب لك.

وتبخرت نوايا ليليان الطيبة أمام تصاعد غضبها. فبالنسبة لذاك الأرعن المغرور لا تُعتبر عائلة مكافحة موضع اعتزاز! تمتمت مضيفتها وقد رأت ليليان عابسة:

ـ آسفة على عدم لباقتي.

ـ لا... أرجوك لا تأسفي. فقد اعتدت على يتمي. أنا أعلم أنك لست سعيدة لأنه اختارني فلست بحمقاء لكنني سأبذل جهدي لأكون زوجة صالحة له.

ـ أنا واثقة من هذا. لقد فهمت منه أنك ترعرعت في الريف... وعملت في... منزل.

ـ نعم عملت وصيفة وأنا لا أخجل بعملي ذاك.

ـ ولماذا تخجلين؟ العمل الشريف يفتخر به المرء دائماً... قد تدهشين لو علمت أن جد أرماندو الأكبر كان بائعاً متجولاً.

ـ كيف كسب ثروته؟

ـ بهروبه مع ابنة ملاّك ثري!

فضحكت ليليان:

ـ أراهن بأنك آسفة لأن أرماندو لن يحذو حذو جده! إذا كان لا بد من فتاة ثرية فلا خيار أفضل من الآنسة «ل».

ـ أوتعرفين عنها؟

ـ أجل... فأنا...

أدركت فجأة أن أرماندو لم يخبر أمه عن أن برتا عملت لدى عائلة دي روشفور، فغيرت خطتها:

ـ لقد ذكرها أمامي منذ مدة. ذاكراً أنك عزمت الرأي على تزويجه منها.

ـ كنت... ولكن هذا كان في الماضي أما الآن فأنت الفتاة التي يحبها وأنا سعيدة بمقابلتك.

ـ أنت لطيفة سيدتي.

ـ سأكون بلهاء إن لم أكن كذلك.

قدّرت ليليان ذكاء ومقدرة الدونا لتقبّلها الوضع المحزن لها. فما من شك في أنها لا توافق على من اختارها ابنها زوجة له... قالت للدونا:

ـ حسناً... أنا مسرورة لاتفاقنا... وآمل أن لا تخجلي بي.

ـ بالطبع لن أخجل بك! دعك من هذا التفكير وتصرفي على سجيتك يا

www.elromancia.com

عزيزتي. ولا بأس فالأيام بيننا تتعلمين فيها قواعد مجتمعنا.

ـ هذا إذا لم أتعثر فيها قبلاً!

فضحكت واتجهت نحو الباب:

ـ سأذهب لأتفقد أرماندو الذي هو دون شك يتساءل عن مكان وجودي.

ـ هل ستخبرينه عن لقائنا؟

ـ طبعاً، فليس بيني وبين ولدي أسرار نخفيها.

جلست ليليان على السرير وحدها من جديد... بعد أن التقت والدته، فقدت ما تبقى من احترام قليل كانت تكنه لأرماندو. فبما أن له أمّاً متفهمة فهو دون شك قادر على أن يرفض الزواج ممن لا يحبها دون اللجوء إلى هذه الخدعة وكانت كلما أمعنت التفكير في الأمر ازدادت اقتناعاً بما تفكر فيه.

بعد أن وصلت إلى الردهة في الطابق السفلي ترددت، فأي باب ضخم هو باب غرفة الجلوس. ودقت على الباب الأقرب فلما لم تتلقَ رداً دخلت هذه الغرفة فإذا بها المكتبة عندها قررت المكوث فيها ما تبقى أمامها من دقائق في أفضل هواية لها، المطالعة. التقطت كتاباً عن الرف فاكتشفت أنه نسخة إيطالية لشاعر فرنسي هو من المفضلين لديها بين الشعراء، فجلست تتصفحه في كرسي قرب النافذة تخفيها بعض الشيء الستارة المسدلة.

ونسيت نفسها في كلماته الرائعة، ولم تلاحظ الشخصين اللذين دخلا، ولم تدرك موقفها الحرج إلا بعد أن سمعت صوت الدونا دوفيللي. وما سمعته بالفرنسية منها جعل من المستحيل عليها الكشف عن وجودها أمامهما.

ـ إنها فتاة جميلة يا أرماندو... أعترف بهذا، لكنها ستشعرك بالملل حتى الموت خلال سنة.

أجابها ولدها بالإيطالية:

ـ أنت في هذا مخطئة. إن لها ذكاء يوازي جمالها وهي إلى ذلك تملك روحاً مرحة فريدة. برتا ليست بالنسبة إلي نزوة عابرة يا أمي... فقد كنت ألاحقها منذ مدة.

ـ لكنك للأسف لم تذكرها من قبل! ولو فعلت لما أصررت على أن تلتقي بليليان... أهي حقاً قبيحة كما ذكرت على الهاتف؟

ـ إنها كابوس حي.

كبحت ليليان ضحكتها وقد انطلق يصف بإسهاب الرؤية التي رآها من النافذة، وما أسعدها وأذهلها أنه صدّق كل ما رأته عيناه... لكن ألم يكن يتوقع الأسوأ!

ـ الطفلة المسكينة... على هذا القدر من القباحة.

ـ إنها تفتقر إلى الجاذبية أيضاً... بعض النساء قبيحات ولكنهن جذابات... ولكن هذه...

فتنهدت الأم:

ـ آه... حسناً. ومع ذلك أعتقد أن برتا لا تناسبك... فهي غير ملائمة لك. لأن حياتك تختلف كل الاختلاف عن حياتها وأنا أعتقد أن الأمر سيؤول بكما إلى التعاسة.

ساد صمت متوتر، وقد ربطت عقدة الذنب أرماندو وهذا ما يجب أن يشعر به: الذنب!

ـ لنوضح شيئاً واحداً يا أمي... أحب برتا وأنوي الزواج منها. فلنترك الموضوع... أتسمحين؟ هيا لتقابليها.

بعد لحظة خيم الصمت على المكتبة، فخرجت ليليان من مخبئها، مذهولة من جبن أرماندو الذي زادها تصميماً على الانتقام منه.

عادت إلى غرفتها بسرعة، فنظرت إلى المرآة فرأت سيدة أنيقة وما عليها فعله الآن هو إظهار نفسها بصورة أسوأ!

فكّت القميص الأحمر إلى الوسط، ثم ربطته برباط أخضر عريض أخذته من فستان آخر. بعد ذلك تناولت مقص الأظافر وقصت طرف تنورتها حتى الردفين تقريباً. هذا وحده كافياً لتخرج عينا أرماندو من محجريهما.

جاء دور شعرها... فجمعته من المقدمة إلى أعلى ما يمكنها، ثم ربطته

www.elromancia.com

بشريط أحمر مزقته من ياقة قميصها... وهذا ما جعلها تبدو كساقية في حانة وضيعة! ابتعدت عن المرآة، فوقع نظرها على زجاجة العطر الثمين، وضعت منها نقطتين خلف أذنيها، همم...! ما أزكى هذه الرائحة! بعد رشة أخرى، ثم أخرى، لم تعد الرائحة زكية! بضع رشات أخرى ويغمى عليها!

رضيت عن نفسها أخيراً... فسارعت إلى النزول.

النظرة المتوعدة التي رمقها بها أرماندو وهي تقتحم غرفة الجلوس لم تؤثر فيها إطلاقاً، لكن تغضن وجه الدونا دوثيللي فعل فعله فيها فدفعها إلى عدم المغالاة في تصرفاتها كي تعوّض عن مظهرها.

نظرت حولها في الغرفة الواسعة:

ـ لعلي لم أتأخر؟

ردت مضيفتها بلطف:

ـ إطلاقاً... هل تريدين بعض القهوة؟ أم تفضلين الشاي؟

ـ ستكون القهوة عظيمة... شكراً.

اقترب أرماندو منها ليناولها الفنجان، فعطس عطسة عنيفة كادت توقع الفنجان منه. راحت ليليان تراقبه بنظرة بلهاء وهو يضع منديلاً على أنفه. همس لها:

ـ بالله عليك ماذا فعلت؟ أسكبت زجاجة العطر كله على رأسك؟

فسألته بكل براءة:

ـ وهل وضعت منها الكثير؟ كانت رائحتها عظيمة فلم استطع إلا أن أرش وأرش.

ثم اندفع بصوت مختنق وفتح النوافذ الواحدة تلو الأخرى وهو يتنشق عند كل منها بعض الهواء.

قالت ليليان معتذرة من مضيفتها:

ـ أنا آسفة جدا... أتؤذيك الرائحة؟

ـ حسناً... إنها قوية جداً يا عزيزتي، والعطر يجب أن يستخدم باقتصاد فلمسة هنا ولمسة هناك حتى يظن المرء بأنها رائحة بشرتك.

حدّقت ليليان ببلاهة إلى أرماندو:

ـ سأتذكر هذا في المرة القادمة... هل تريدني أن أذهب لأغتسل.

فرد باقتضاب:

ـ فيما بعد. على أن ترتدي ثياباً محتشمة في الوقت ذاته.

صاحت به أمه:

ـ أرماندو... لا تكن فظاً.

فقال على عجل:

ـ ما عنيته أن برتا جميلة فلا داعي إلى أن تزين نفسها هكذا مثل... مثل... مثل...

خانته الكلمات، فلاذ بالصمت.

درست دونا دوثيللي «برتا» جيداً، ثم قالت ببطء:

ـ كنت مذهلة عندما رأيتك في غرفتك... لذلك أعتقد أنك تحاولين إثبات شيء ما لولدي.

أعجبت ليليان للمرة الثانية بفطنة هذه المرأة:

ـ لقد أصبت الهدف! لقد آن له أن يعرف أن إزعاجه إياي يجعلني أفعل ما هو معاكس!

ـ هل سمعت هذا يا أرماندو؟

ـ بكل وضوح يا أمي... ربما سأتركك تصقلين برتا.

توجه إلى كرسي والغضب باد على فمه. نظرت إليها أمه بمرح، فتمنت عندئذ لو أنها تتصرف على سجيتها، تنهدت ثم مدت يدها إلى الكعكة المحلاة بالكريما. فعلقت مضيفتها:

ـ يسرني أن أجد شخصاً لا يمارس الحمية.

ـ أنا محظوظة، فركوب الخيل والسباحة يبقياني دائماً...

صمتت، ولكن بعد فوات الأوان... فقد قهقه أرماندو وقال ساخراً:

ـ ركوب الخيل والسباحة؟ وكيف تمكنت منهما بين الكنس وتلميع الأرض؟

www.elromancia.com

فأجابته بسرعة:

- بكل سهولة... وإلا لماذا تظن أنني أعمل في الريف؟

فسارعت الدونا دوفيللي إلى مقاطعتها:

- أمام المنزل بركة سباحة إذا كنت تحبين السباحة. ولكن ليس لدينا أسطبل. فقد وقع أرماندو عن ظهر جواد وهو صغير وكره الجياد مذاك الوقت.

فقالت ليليان:

- كان عليه أن يعود لامتطائه بعد الوقوع مباشرة.

فرد عليها أرماندو ساخراً:

- كيف ذلك مع ساق مكسور؟

قاطعته أمه:

- كنت سأذكرك يا عزيزي بأنني سأقيم حفلة عشاء صغيرة في الغد لأقدّمك برتا إلى العديد من الأصدقاء.

كان وقع الخبر على أرماندو كالصّاعقة. فقد قفز من مكانه بسرعة حتى كاد يطيح بطاولة صغيرة كانت قربه:

- ولماذا بالله عليك!... أعني... أريدها أن تستقر أولاً... وأن تعتاد على العيش هنا...

دمدمت ليليان متذمرة:

- تتحدث عني وكأنني مخلوق عجيب.

عندما حاول الرد، دخل بيدرو ليقول انه مطلوب على الهاتف. فأسرع إلى الخارج، ناظراً إلى ليليان نظرة متوعدة تنذرها بأن عليها أن تضبط لسانها اثناء غيابه. لكنها تجاهلت نظرته وأكملت تناول الحلوى والقهوة.

قالت مضيفتها:

- شعرك جميل لكن لونه غريب.

- إنه شديد الاحمرار... أتظنين أن عليّ تخفيف لونه؟

- فكرة حسنة، لكن لو غيرت التسريحة، فلن يكون اللون... صارخاً

جداً.

تمنت ليليان العودة إلى طبيعتها وتصورت ردة فعل أرماندو عندما سيراها على حقيقتها في النهاية. هل سيغضب منها أم سيسر؟ ربما سيحس بالأمرين معاً، وعندها قد يصبحان صديقين. صديقان فقط؟ وخجلت من السؤال! بعد أن أدركت أن إقامتها هنا مؤلمة إلى حدٍ يجعلها لا تفكر في المستقبل بل من الأفضل ترك كل شيء للقدر على أن يكون القدر حليفها.

●●●

www.elromancia.com

٦ ـ السحر ينقلب على السَّاحر

لم تكن تلك برتا المهرجة التي دخلت غرفة الاستقبال في الأمسية التالية، بل سيدة أنيقة ترتدي تنورة من الحرير الأصفر تطوف حولها، وهي ما فعلت ذلك إلا لتقابل الضيوف المجتمعين لتقييم الفتاة التي استطاعت أخيراً أن تأسر أرماندو دوڤيللي.

ذلك المساء، دخلت مضيفتها إليها في غرفتها، لترشدها إلى ما يحسن أن ترتديه، فوجهت لها النصح بلباقة.

ـ لا تحسبيني أقحم نفسي في شؤونك الخاصة يا عزيزتي... لكنك قلت إنك تحبين أن أساعدك في اختيار ما هو مناسب لك.

ـ وكنت أعني ما أقول.

فتحت باب خزانتها فتمتمت دونا دوڤيللي.

ـ لديك ثياب رائعة.

ـ لقد اشتراها أرماندو لي... فله تصور محدد عن الصورة التي يجب أن أظهر فيها.

ـ لأنه يريدك أن تنصفي نفسك... إن كنت لا تمانعين قولي، أظن أن تسريحة شعر أقل صخباً قد تناسبك أكثر... لماذا لا تدعين روزا، خادمتي الخاصة ذات اليدين السحريتين تسرّح شعرك؟

ـ شرط أن لا تقترب مني وفي يدها مقص!

ـ لا تخافي من هذا... وإذا لم يعجبك ما تفعل بإمكانك تغييره.

فقالت ليليان بجذل:

ـ هذا صحيح... أشكرك على لطفك.

كانت تفكر فيما حدث وهي تتقدم عبر غرفة الاستقبال وعيون الضيوف مركزة عليها.

تقدم أرماندو بكل كياسة ليمسك ذراعها فابتسمت وقد رأت الدهشة على وجهه. ربما عليها أن تلطف الأمور الليلة؟ فحرام عليها أن تسبب له القرحة!

همس لها:

ـ صورتك مذهلة... ليتك تتصرفين كمظهرك!

ها هو يوجه لها اطراء ملتوياً، في حين كانت تفكر في أن تخفف بؤسه! جرّته إلى طاولة الشراب حيث وقف خادم يضع سترة بيضاء، فصاحت بأعلى صوتها:

ـ من يشاركني الشراب؟

أحس أرماندو بأنه جمد كقطعة من جليد. ثم تمكن بقدرة قادر من إطلاق ضحكة:

ـ آه برتا تحب المزاح!

ثم أمسكها بأصابع فولاذية من ذراعها وجرّها إلى منتصف القاعة ليقدمها إلى الضيوف. وقد بدا من خلال السُّرعة التي كان يجذبها بها أنه لا يريدها أن تتفوه مع أي كان بأكثر من كلمة «مرحبا».

عندما أودعها أخيراً داخل الكرسي، بعيداً عن الجميع. أعطته علامة امتياز لقدرته على معالجة ما كان يمكن أن يكون موقفاً محرجاً له. لكن، يجب ألا يعتقد بأنه سينجو منها بسهولة... فالأسوأ قادم!

وصل عدة ضيوف آخرين، فتقدمت منهم الدونا دوڤيللي ترحيباً بهم فهب أرماندو ليحذو حذوها لكنه عاد ففكر قليلاً وبقي ملازماً جنبها. عزمت ليليان على أن تحرج موقفه... فجلست على مقدمة كرسيها، وقبل أن يعرف ما يحصل ركضت عبر الغرفة نحو المائدة حيث كان عدة أشخاص يتناولون المقبلات اللذيذة.

www.elromancia.com

سألها رجل مرح أحمر الوجه بفرنسية مكسرة:

ـ هل أحضر لك شيئاً مدموزيل؟

أشارت إلى صحون من الكريستال فيها كافيار. سألت بسذاجة:

ـ ما هذه؟

ازداد وجه الرجل احمراراً:

ـ مون ديو! إنها كافيار!

وضع القليل منه في طبق ثم أضاف قطعة من الخبز المحمص وقدمها إليها.

ضحكت ضحكة مرتفعة ثم وضعت اصبعها في الكافيار، فعلق بعضاً منه ثم لعقت اصبعها.

ـ أوتش!... طعمها كعجينة السمك!

أعلمها تنفس عميق قرب أذنها أن أرماندو بقربها، فاستدارت وهي تمد اصبعها إليه:

ـ مرحبا يا حبي... أتريد «العقة»؟

ـ إذا كان هذا يشمل يدك.

التفت إلى الرجل الأحمر الوجه:

ـ مدموازيل برتا بارعة في المزاح يا جوزف، لا يجب أن تأخذها على محمل الجد.

تراجع جوزف دهشاً أما أرماندو فتناول من يدها الطبق مبتسماً:

ـ هل تحبين شيئاً آخر يا عزيزتي؟

ـ مثل ماذا؟

فقال همساً:

ـ الخنق!

فضحكت ضحكة خافتة، ونسيت أن تعطيها صفة برتا. لاحظ أرماندو الصوت الموسيقي، فضاقت عيناه. وغضبت ليليان من نفسها، وأبعدت اهتمامه عن الأمر بأن دفعته في ظهره وهي تصيح:

ـ انظر من هنا! إنه فيتوريو!

أسرعت وقد عمتها سعادة عامرة لرؤيتها وجهاً يتعاطف معها:

ـ أحمد الله على مجيئك! فأنا لم ألتق من قبل بمثل هذا الجمع الممل... ليتهم يُعلّقون على الجدار!

فرد فيتوريو بإعجاب:

ـ أما أنت فيجب أن تُرسم لك أجمل لوحة وتوضع في أروع إطار.

ـ لا شك في أن إعجابك بي يعود إلى تسريحتي الجديدة. يسرني إنها أعجبتك. لم أتوقع قدومك قبل نهاية الأسبوع.

ـ ولا أرماندو، كما يبدو من النظرة التي يرمقني بها!

رفعت رأسها:

ـ إنه مزعج كشوكة في عين... ما أشدّ ذهولي بك كيف لك أن تصادق مغروراً متكبراً كهذا.

ـ إذن لماذا يخيفني؟

ـ أظنه متوتر الأعصاب... فخداع أمه لا يعجبه.

ـ فلنبح لها بالحقيقة إذن.

ـ ليته يفعل... إنما بعد أن أوقع نفسه في هذه الورطة فهو سُيتم دون شك التمثيلية حتى النهاية المريرة. وأنا سأكون سبب هذه النهاية المريرة على ما أعتقد.

فضحك:

ـ أنا شخصياً أعتبرك كل الحلاوة!

ـ أنت تغازلني.

ـ أتمانعين؟

تأملته ليليان... فإذا بها تجده مثالياً... فاتن في المدينة... ولكن الدفء والعطف اللذين يشعان منه ينبئان بأنه ليس بفتى لعوب... قال لها ممازحاً:

ـ أنت تتأنين في الرد.

www.elromancia.com

ـ لأنني أحاول ولوج أغوارك.
ـ دعك من ذلك وأقبليني صديقاً وانتظري ما سيحدث... بماذا تفكرين؟
ـ في المستقبل.
ـ سيكون مستقبلك رائعاً.
ـ لن توصلني الثلاثون ألف فرنك إلى ما تتصوره.
ـ ثلاثون ألف...!
ـ هذا ما دفعه أرماندو مقابل هذه الوظيفة الصغيرة. كنت اتساءل عما أفعل بهذا المبلغ؟
فرد بسرعة:
ـ استثمريه.
ـ الأمر ممل... الأفضل أن أشتري بعض الثياب المثيرة وأسافر في رحلة بحرية... هذه أفضل طريقة لالتقاط عريس!
رفع حاجبه، فتصنعت الدهشة:
ـ ألا تتصورني التقط عريساً؟
ـ بل على العكس، أظنك قادرة على الحصول على من تريدين من الرجال فأنت من نوع خاص... عندما تنهين عملك مع أرماندو أريد التعرف إليك أكثر، فعديني أن لا تختفي دون سابق إنذار!
ـ لن أطير إلى القمر!
ـ كنت أمل أن تبقي في روما.
ـ لماذا؟ لست فتاة حسنةِ صحبتها. إذا كان هذا ما تفكر فيه.
لمعت عيناه الذهبيتان:
ـ ما أفكر فيه أنك سيدة شابة حلوة ليست مشاكسة كما تدعين.
وربت على ذراعها بعد أن لاحظ استغراقها في التفكير:
ـ هاي... لقد ابتعدت عني.
ـ لا لم ابتعد كنت أفكر فيما قلته.
ـ جيد... ثمة ما أريدك أن تفكري فيه. إن كنت تحبين العمل في روما،

فسأجد لك وظيفة. دعيني أعرف فقط ما تفضلين... عرض الأزياء، السكرتاريا، أم ماذا؟
لعبت دورها حتى نهايته فحدقت فيه:
ـ أرى أن هدفك من عرضك اللطيف هذا إيقاعي في غرامك!
ـ لا لن أسعى إلى ذلك بهذا الأسلوب. فأنا رجل طبيعي، وأنت فتاة خلاّبة... أما عرضي فهو عرض حقيقي فأنت لست جميلة فقط، بل ساحرة قد تصلين بسحرك إلى ما تبتغين.
ـ كل ما أريده أن أكون ممن قد يرغب أرماندو في الزواج منهم.
تصلب فيتوريو:
ـ أتعنين أنك بدأت تميلين إليه؟
ـ لا تكن أحمقاً! أنا معجبة بنمط حياته ليس إلا، ربما إن أحسنتُ آداب السلوك قد أصل إلى خاتمه.
هزت كتفيها بقلة اكتراث ثم تابعت:
ـ فلننسَ المستقبل فأنا الآن خطيبة أرماندو.
قبل أن يتكلم فيتوريو، فتح بيدرو الباب المزدوج وأعلن أن العشاء قد غدا جاهزاً. عندها لمحت أرماندو يدنو منها.
ـ مرحباً أرماندو... لعلك لا تعترض على مجيئي دون دعوة.
ـ بل اعتقدت أنك قادم دون شك... ألا تبدو ملاكاً؟ لكن ذلك يفسد ما إن تفتح فمها!
فصاحت به:
ـ أستطيع قول الشيء نفسه عنك.
ـ أتعنين أنك ترينني ملاكاً... هذا مديح عظيم.
ـ لا تغتبط، فإبليس مستقبله معروف.
أجفل أرماندو بينما انفجر فيتوريو ضحكاً وقال:
ـ لقد ربحت برتا هذه الجولة يا صديقي، فاعترف بهزيمتك ورافقها إلى المائدة.

www.elromancia.com

فقالت ليليان:

ـ إلا إذا كنت ترغب في مرافقة الآنسة التي كنت تتحدث إليها.

ـ هل تحسين بالغيرة؟

ـ بل بخيبة الأمل... فنحن هنا لنقنع أمك بأننا عصفوران من عصافير الحب. وها أنت تمضي وقتك برمي نظراتك الغرامية إلى نهدي تلك المرأة!

انخفضت عيناه إلى صدرها، فبدت بشرتها البيضاء من ياقة الفستان المفتوحة... وقال:

ـ إذا نظرت إلى ما عندك يا «شيري» قد أنسى نفسي!

ـ سأعيد إليك ذاكرتك في الحال.

فضحك مهزوماً ومد لها ذراعه، فانحنت تتفحص قماش البذلة الأسود:

ـ لماذا تفعل هذا؟

ـ سأرافقك إلى المائدة... ألم تتعلمي شيئاً في منزل دي روشفور؟

ـ طبعاً... فعمال الأسطبل وعمال الأرض هم سادة محترمون أكثر من المتعجرفين الموجودين هنا!

كانت غرفة الطعام الكبيرة جميلة جداً. فيها أثاث يعود إلى القرن الثامن عشر، يتناسق مع السقف المحفور المزين برسوم الملائكة الذي تدلت منه ثريتان رائعتان مشعتان فوق طاولة مليئة بالأواني الفضية والأطباق الكريستالية. كان أمام كل كرسي بطاقة تحمل اسم الضيف.

خيبة أمل برتاالمبدئية لجلوسها تجاه أرماندو بدل جلوسها إلى جانبه، حل مكانها السرور لعلمها بأنه لن يصل إليها عبر هذه المسافة ليضربها من تحت المائدة لو فعلت شيئاً لا يعجبه.

كان الحساء أول ما قدِّم من طعام. ولمَّا قدم معه رقائق الخبز علمت أن فرصتها قد حانت، فالجميع حولها كان يقطع الخبز إلى قطع صغيرة، نظرت إلى أرماندو نظرة شريرة ثم أمسكت السكين وقطعت قطعة الخبز إلى نصفين.

ضغط أرماندو شفتيه معاً بغضب، ثم قطع عمداً قطعة خبز صغيرة ووضعها

في فمه، مشيراً باصبعه إشارة خفيفة إلى أن هذه هي الطريقة المؤدبة لتناوله، ثم اتبع قطعة الخبز بملء ملعقة من الحساء.

تظاهرت بالغباء، واستمرت في تقطيع الخبز، ثم حملت كل ما قطعته بيدها لتضعه في الحساء وراحت تحركه بقوة. أحست بأن الرجل العجوز الجالس إلى يسارها يراقبها بذهول، بينما بدا على أرماندو بوادر الانفجار.

لكنها لم تنته بعد منه! فشريحة لحم الحمام تحدت مخيلتها! والبطاطا المسلوقة التي قُدِّمت معها هيأت لها الفرصة الذهبية. شرعت تسحق كل منها بشوكتها، ثم كستها بالزبدة وخفقتها بعنف.

الشاب الجالس إلى يمينها توقف عن تناول الطعام مذهولاً، وسألها:

ـ أهكذا تأكلونها في فرنسا؟

ـ ثمة طرق كثيرة غير هذه... لكنها المفضلة عندي.

رفعت كوب العصير بكلتا يديها إلى فمها فازدردت ما فيه دفعة واحدة مصدرة أصواتاً مختلفة، ثم لعقت بعد ذلك شفتيها ومسحتهما بيدها.

إنها الآن متفوقة في قلب كل شيء رأساً على عقب وما زال لديها متسع من الوقت... ثم قلبت سكين السمك إلى سكين اللحم وسكين اللحم إلى سكين السمك، بينما استخدمت ملعقة الحلوى الصغيرة لإزالة «البازيلا» الصغيرة عن قطع لحم الغنم، وأخذت تتظاهر بأنها على وشك تناولها بيدها. بل إنها فكرت في أن ترمي عظام اللحم إلى ما وراء ظهرها لكنها أحست بأن هذا قد يكون أكثر مما يستطيع أرماندو تحمله، فاكتفت بادعاء الأناقة، فأمسكت قطع الأضلاع بمناديل المائدة لتأكلها مصدرة أصواتاً مرتفعة.

بدا وكأن معظم الضيوف يتجاهلون تصرفاتها فما كان من أرماندو في النهاية إلا أن تقبل أن لا شيء قد يوقفها سوى رميها خارج الغرفة، ولذلك حافظ على هدوء أعصابه بطريقة مذهلة.

عندئذ وجدت أن ما فعلته كان كافياً لذا تناولت الأيس كريم والخوخ بأقل ضجة ممكنة... متظاهرة بأنها لا تفهم الحديث الذي يدور حولها بالإيطالية

مطلقة بين الحين والآخر عند سماعها نكتة فرنسية ضحكة رنانة. عندما شرع الجميع في تناول القهوة في غرفة الاستقبال جلس أرماندو إلى جانبها:

- لم أشاهد قطُّ عرضاً حقيراً منحطاً كهذا!

- ماذا ارتكبت من خطأ؟

- الأفضل أن تقولي ما الذي كان صحيح في عملي! والأفضل أن أعلمك بعض الأخلاق وبسرعة... سآتي إلى غرفتك الليلة و...

- هذا غير ممكن! فأنا أعرف ما تسعى إليه!

- لا تخدعي نفسك! فتصرفاتك المقرفة تكاد تقضي علي!

لكن هذا ما لم تكن تتوقع سماعه، فهدفها كان دفعه إلى الجنون... فأقسمت على أن تحسن التصرف في الغد لتجذب اهتمامه.

تثاءبت مبدية الضجر من الضجيج وتدفق الكلام الدائر حولها... ليتها كانت أبعد نظراً فلم تنكر إجادتها الإيطالية. كان عليها الادعاء بأن أباها إيطالياً. أخفت ابتسامة... وهي ترى أن الأكاذيب تندفع من لسانها بسرعة مذهلة وأرماندو يصدقها بكل سذاجة!

ارتشفت قهوتها بسرعة حتى كادت تبصقها عندما لذع السائل فمها... انحنت إلى الأمام فوضعت الفنجان من يدها على طاولة صغيرة منخفضة... فشاهدت يداً مطلية الأظافر تستريح على ركبة أرماندو تحت الطاولة الكبيرة...

هكذا إذن! تظاهرت أنها فقدت اتزانها فرمت فنجان القهوة إلى الجانب الآخر لينسكب السائل البني على فستان الفتاة التي قفزت بسرعة مسببة بذلك اتساع رقعة انتشار القهوة على فستانها... فصاحت ليليان:

- أنا آسفة جدا... لك أن ترمي قهوتك على ثوبي إن كان ذلك يرضيك!

كانت الفتاة منهمكة بكبح جماح غضبها فلم ترد عليها ثم سرعان ما أتت الدونا دوڤيللي مظهرة قلقها.

- تعالي إلى غرفتي إيزابيلا، فلدي منظف عجيب تُقسم روزا به.

نظرت إيزابيلا إلى ليليان نظرة حقد:

- لا شيء يزيل بقع القهوة. لقد أُتلف فستاني... أتلف!

فقال أرماندو مهدئاً:

- إن كان أتلف فأنا سآسر بأن أقدّم لك ثوباً آخر عوضاً عنه. سأرافقك لتنتقي آخر!

ابتسمت إيزابيلا بحرارة، ثم رافقت والدة أرماندو، الذي جلس عابساً وهو يقول متمتماً:

- إن طبعك لسيء. «حادثة» الفنجان كانت متعمدة.

- كان يجب أن أصب القهوة فوقك!

- من المؤسف أنك لم تفعلي... فأنا أعرف إيزابيلا التي لا شك في أنها ستجرني غداً لشراء فستان جديد ثمنه ضعف ثمن فستانها هذا.

عادت الدونا دوڤيللي بعد دقائق لتعلن أن البقعة قد زالت تماماً، لكن بما أن الفستان قد ابتل فقد اضطر فيتوريو إلى إيصال إيزابيلا إلى منزلها.

علمت غريزياً بأن أرماندو يفكر في ما ارتكبته عند العشاء وبما أن مزاجها كان لا يقبل بأي صدام معه. قررت الهرب إلى غرفتها ما إن تنتهي الحفلة.

عندما خرج آخر ضيف من المنزل، سارعت بحذر نحو السلم، في محاولة للهرب لكن أرماندو كان لها بالمرصاد فمنعها عن ذلك قبل أن تخطو باتجاه الدرجة الثانية.

- ليس بهذه السرعة يا حبيبتي... ألن تبقى معي لبضعة لحظات وحدنا؟

تمتمت الدونا بلباقة وراءهما:

- أظن أن هذه فرصتي لأتمنى لكما ليلة سعيدة!

جرّ أرماندو بصمت ليليان إلى غرفة جلوس صغيرة، أقفل بابها.

- أعلم أنك لست فتاة ذكية... ولكنني أشك في أن تكوني غبية إلى الحد الذي تدّعينه.

- عمَّ تتكلم؟

- عن التمثيلية التي قمت بها الليلة. فأنا لا أصدق أنك لا تعرفين بعض

آداب المائدة كاستخدام السكاكين. أما الخبز الذي وضعته في الحساء والبطاطا التي سحقتها...

خانته الكلمات. فأمسك كتفها وراح يهزها بعنف:

ـ لماذا تدّعين غباء لا تملكينه؟ ماذا دهاك؟

فكرت في أنها إن لم تجب إجابة ترضيه فسيلوك السؤال إلى أن يجد الرد بنفسه:

ـ انك تعاملني كغبية لذا أتصرف كالغبية.

أجفله ردها حتى سقطت يداه إلى جنبيه.

ـ أنت على حق... أعتقد أنني أنا الغبي... كان يجب أن أساعدك، لا أن أسيء إليك. يبدو وكأنني أدفعك إلى أن تكوني شيئاً لن تستطيع أن تكونيه أبداً.

ردت بخشونة:

ـ أتريد تحويل ببغاء إلى عصفور دوري.

لم يستطع كبح ضحكته:

ـ بما أن لك شعراً كهذا فقد يناسبك أكثر أن أحولك إلى طائر «أبو الحناء» ليتك تعرفين كم ستبدين رائعة في ألوان مناسبة.

تمكنت من عصر بضعة دموع من عينيها:

ـ لكنني أفضل الألوان الزاهية.

عندما رأى الدموع تطل من عينيها أجفل:

ـ سامحيني برتا. لا يحق لي انتقادك. قلت أشياء قاسية لك. لكنها كانت جميعها تصب في خانة مصلحتك.

ـ بل في خانة مصلحتك أنت. فهذا كل ما يهمك! أنا لا أعني لك شيئاً. فما أنا إلا فتاة استأجرتها لتؤدي لك عملاً ما إن تنهيه حتى تنساها إلى الأبد.

قطب حاجبيه ثم راح يفرك طرف ذقنه:

ـ هل سأنساك؟

بدت لحيته نامية بعض الشيء فتساءلت: أيحلقها قبل أن ينام... لما

لاحظ تحديقها سألها فجأة عما تفكر فيه فاضطرت إلى الإجابة بعفوية بما فكرت فيه.

ـ أنا أحلقها في المساء عندما يكون برفقتي «شخص ما»... هل أرضاك الرد؟

تسلل الدم إلى وجنتيها، إنها لم تحمّر خجلاً منذ سنوات... عندما طالعه احمرار وجهها عبس ثانية:

ـ ما يدهشني أنك تحرجين بسهولة.

ـ أنا لا أحرج عادة... لكن هذا وضع مجنون... و... وأنت شخص غريب الأطوار...

ـ وأنت كذلك... ففي لحظة بلهاء وفي الثانية حكيمة ككاهنة آلهة الإغريق... إنها كانت...

ـ أعرف ما كانت عليه! أنا لم أذهب إلى مدرسة راقية لكنني لست جاهلة!

فصاح بها:

ـ ها قد عدت من جديد! تقيمين الدنيا وتقعدينها على لا شيء! أنا لن أدعي أننا متشابهان، لكنني لم أقصد بشرحي ذاك أن أشير إلى مقامك أو مقامي. فأنا أعرف فتيات ذهبن إلى مدارس راقية مع ذلك لا شيء مشترك بيني وبينهن.

ـ لكن سينتهي بك الأمر إلى الزواج من إحداهن. أما من هن فقيرات مثلي فلن تفكر فيهن إطلاقاً.

بدا عليه شيء من الحرج:

ـ لا أنكر هذا يا برتا... فنحن جميعاً نفضل معاشرة من يشاركوننا قيمنا واهتماماتنا.

ـ كيف تعرف أنني مختلفة وأنت لم تمنحني فرصة؟ ألم تفكر في مرافقتي إلى بساتين الزيتون وإلى معاصر الزيت لتشرح لي عملك؟ أنا سريعة الاستيعاب يا أرماندو... قد أصبح كما تريدني.

ثم رفعت عامدة ذراعيها لتدفع شعرها إلى الوراء، فكان أن زادت هذه

www.elromancia.com

الحركة من التصاق الثوب إلى جسدها... عندها تهدجت أنفاس أرماندو دليل ما يعتريه من مشاعر مما رأى، لكن صوته كان ثابتاً عندما قال:

- في الوقت الحاضر، أريد منك الالتزام باتفاقنا والتصرف على أنك خطيبتي.

مررت طرف لسانها الزهري اللون على شفتها الناعمة:

- وبعد ذلك؟

رد بصوت أكثر خشونة:

- بعد ذلك... أنا... لماذا التفكير فيما سيحدث بعد ذلك يا برتا؟ فماذا عن الحاضر؟

امتدت ذراعاه إليها، فاندفعت وقد تملكتها رغبة قوية تجاهه انعكست بوضوح على وجهها سمحت له بأن يشدها إليه وبأن ينقلها إلى الأريكة حيث مددها على الوسائد الطرية وركع قربها، هامساً:

- يا برتا المجنونة... أتعلمين ماذا يفعل بي جسدك؟ إنه يُنسيني غدي ويجعلني اؤمن بأن لا وجود سوى لهذه الليلة... وهذا ما يحدث الآن، وهذا هو المهم.

مرت أصابعه برقة على قماش ثوبها الناعم، فتمتمت بابتهاج وقد تأججت النيران بينهما، فارتجفت وتعلقت به كغريق يطلب النجاة بعد أن استحوذت عليها ثورته وطغت عليها ثورتها... ودون ارادة منها استجابت له، استجابت للمساته ولعناقه وليديه... إلى أن أحست بأصابعه تغوص لتلامس بشرتها الحريرية الناعمة.

عندها أجفلت، فدفعت يده عنها...

- هل أسرعت في الطلب؟ أريدك، أريدك فأنا ما عدت قادراً على الانتظار.

ما قرأته خلف أسطر كلماته جعلها ترتدّ متراجعة... فدفعته عنها بعنف حتى وقع أرضاً... فأجفل، وأخذ يحدق إليها وهي تهب بغضب واقفة لتسوي

فستانها:

- ماذا دهاك بحق الله... ما بك يا برتا؟

- إن ما بي هو اعتقادك بأنني جاهزة للتجاوب معك حتى النهاية! لقد استجبت لعناقك وإذ بك تعتقدني... أنت تجعلني اشمئز!

وقف أرماندو برشاقة... وقال بخفة:

- هذه غلطتي... ولكن ما كان عليك قوله هو «لا» فأنا لا اؤمن بالاغتصاب. لكني لن أظلم نفسي فأنت أعطيتني انطباعاً بأنك راغبة فيما أريده... ومع ذلك فلم يحدث أي ضرر... هل نذهب الآن إلى الفراش؟ أعني كل إلى فراشه.

تقدمته بصمت، ولما وصلت إلى غرفتها اعترفت بأن اللوم يقع عليها كما يقع عليه... فقد استجابت له بشكل فاضح، جعله يسعى إلى إشباع رغباته كفتى عابث.

حذرت نفسها: انتبهي مرة أخرى! لقد دخلت هذه اللعبة لتلقنيه درساً... لا لتُلقّني أنت درساً.

●●●

٧ ـ متى يركع المارد؟

مر الأسبوع التالي وأرماندو مشغول بقطاف الزيتون. أما والدته فانشغلت بحفلاتها الخيرية تاركة ليليان وحدها. تجوب بسعادة الحدائق الرائعة، وتقضي ساعات في المكتبة حذرة من أن يراها أحد.

قال لها أرماندو بعد ظهر يوم الجمعة، عندما التقاها خارج مكتبه حيث كان قد أمضى يومه مع مدير أعماله.

ـ مسكينة يا برتا... لا شك في أنك ضجرة حتى الموت!

ابتلعت رداً لاذعاً... لكنها عادت فعدلت عن ذلك إذ لا بأس بأن يشعر ببعض الأسف تجاهها. سألها:

ـ لماذا هذا الوجه الصارم؟

ـ أفكر في مستقبلي أنا...

ـ في مستقبلي فقط.

ـ ما الفرق بين مستقبلي... ومستقبلي أنا...؟ قلتها خطأ... لكنك تفهم ما عنيته.

ـ هذه المرة أجل... أما فيما تبقى... لا... لقد استقريت هنا وقد أحبك الموظفون... ووالدتي تسألني باستمرار عن موعد الزفاف.

لم تستطع ليليان احتواء فرصة انتصارها.

ـ احذر إذن... فقد تقع في فخ دائم معي!

رد عليها ببطء وتجهم:

ـ لا خوف من هذا... فأنا واقع في حب فتاة أخرى.

فأجفلت:

ـ منذ متى؟

ـ منذ ستة أشهر.

أحست بالخيبة:

ـ لكن ذلك اليوم في الغابة... عندما استأجرتني... قلت إنك لا تنوي الزواج قبل سنوات!

ـ كيف أبوح لك بأسراري وأنا حديث العهد بك... أضيفي إلى ذلك أن كلوديا تريد أن يبقى الأمر سراً إلى أن تصبح جاهزة... إنها تدرس الهندسة الزراعية. وأمامها سنة أخرى للدرس.

نظرت ليليان إليه غضب... فلو عرفت هذا لما وافقت مطلقاً على عرضه المجنون...

ـ أتفهمين لماذا أخشى الارتباط بك؟

فهزت رأسها وقالت بفضول:

ـ ولكن لماذا السرية؟ فإعلان الأمر رسمياً لن يوقفها عن الدراسة.

ـ قد تتأثر دراستها... فأمها المشاكسة، قد تصرّ على تركها الكلية والزواج مني قبل أن أغيّر رأيي!

ـ امرأة حكيمة.

ـ ليس في هذه الحالة... فكلوديا فتاة جميلة، وأنا على استعداد لانتظارها.

ـ هل أخبرتها عني؟

ـ أجل.

وضعت يديها على خصرها ونظرت إليه بسخرية:

ـ كنت أود أن أرى وجهها عندما أخبرتها.

ـ بدا وكأن الخبر قد سلاّها.

ـ إن لها روحاً مرحة إذن.

ـ فعلاً.

www.elromancia.com

تخيلت صورة كلوديا المجهولة، ثم تابعت السؤال:

- وأين التقيت بفتاتك؟

- كنا جيراناً قبل عشر سنوات مضت... فبعد وفاة والدها انتقلت وأمّها إلى روما... ففقدت الاتصال بها حتى السنة الماضية حين التقيتها في حفلة عشاء، وما إن التقيتها ثانية حتى علمت بأنها الزوجة الفضلى لي... لذا أنا على استعداد لانتظارها.

تذكرت حديثه مع فيتوريو على شرفة منزلها... الخنزيران! قالت له:

- لو كنت مخطوبة، لما تركت خطيبي يغيب عن ناظري.

فضحك:

- أراهن على ذلك... فأنت عندما تريدين شيئاً تسعين إلى التشبث به. أليس كذلك؟

- دون شك... أظن أن الوقت قد حان لذهابي.

- لماذا؟

- لأصارح أمك... أنا واثقة من أنها ستحافظ على سرك.

خلّل اصابعه في شعره، ليشعثه أكثر:

- ثمة ما هو أكثر من ذلك... أترين، لا أريد أن تعرف بأنني خدعتها بشأننا فقد تتألم كثيراً.

- إذن كيف ستتمكن من فسخ الخطوبة؟

- ذلك سهل إن تمّ في إسبانيا التي سأسافر إليها في الشهر القادم برفقتك... وبعد بضعة أسابيع سأكتب لها أننا لم نتفق فافترقنا. وعندما أعود، سأترك بعضة أشهر تمر قبل أن أخبرها عن كلوديا.

- لقد رتبت كل شيء...

- طبعاً.

- وبعد ذلك...؟

- لا مزيد من الأسئلة يا برتا... علي الذهاب الآن.

- هل أرافقك؟

- لا... فلدي اجتماع مع شركة الإعلانات ولا أدري متى سأنتهي.

- لماذا تحتاج إلى شركة إعلانات.

- للإعلان عن أصناف الزيتون المعلب والزيت... فنحن بحاجة إلى الإعلان لتسويق بضاعتنا.

- سلطة الإعلام!

نظرته الدهشة أعلمتها بأنها أخطأت ثانية... فسارعت إلى القول:

- أنا لست وجهاً جميلاً فقط.

- أعلم... أنت بئر عميقة يا برتا.

- لهذا أسعى إلى تهذيب تصرفاتي. فالإقامة في هذا المنزل جعلتني أحس بحلاوة هذا النوع من الحياة... متى ستعود للعشاء؟

- لن أعود... لكنني لم أنس وعدي بمرافقتك إلى الغداء غداً.

في اليوم التالي عند الظهيرة وجدها تنتظره قرب سيارته. كانت ترتدي ثوباً قطنياً بنفسجياً يبرز تقاسيم جسدها الفاتن الذي يُنسي المرء التفكير بلون شعرها البرتقالي اللامع.

- إلى أين سنذهب؟

- إلى المطعم فوراً حيث سنلتقي فيتوريو.

ارتفعت روحها المعنوية عندما وصلا إلى بلدة سالرنو حيث توقفا أمام المطعم الذي يحمل الاسم نفسه. لم تدهشها رؤية الناس المكتظين في حدائق المطعم حول الطاولات.

ما كاد أرماندو يتفوه باسمه حتى قاده رئيس الخدم إلى طاولة تقبع تحت شجرة برقوق تحيط بها عريشة عنب تتدلى أغصانها لتعطي الجو لوناً أخضر شاحباً. سألها أرماندو:

- أعطيك قرشاً لتخبريني عما تفكرين.

كم ستحب أن ترى وجهه لو عرف أفكارها! قالت كاذبة:

- كنت اتساءل عن فيتوريو... فأكاد أموت جوعاً.

www.elromancia.com

- تناولي قطعة خبز.
- بل أفضل كوب عصير برتقال.
قال وقد أخذ يرتشفان العصير:
- لقد تأخر فيتوريو.
- لعلك لم تضجر من رفقتي.
- بل على العكس. فإن لك روحاً مرحة رائعة وطريقة غريبة في النظر إلى الأشياء.
- أتعني... طريقة مختلفة عن طريقتك؟
- بل مختلفة عن معظم الفتيات... طريقة لا يُتنبأُ بها إطلاقاً.
- لقد ظننت أن هذا يخيفك!
- كان يخيفني... ولكن ثمة ما يعوض عنه.
- وما هو؟
- أنك لا تضجريني أبداً!
- هذا ما يقوله فيتوريو.

توقف رد أرماندو عند ظهور فيتوريو الذي تتأبط ذراعه امرأة فاتنة شقراء جعلت أرماندو يهب واقفاً.
- ماريا... ما هذه المفاجأة! لم يخبرني فيتوريو عن قدومك!
قال صديقه:
- التقيتها صدفة، فاقترحت عليها مرافقتي لقضاء إجازتها هنا.
قالت الفتاة:
- لن أفرض نفسي عليك حبيبي أرماندو... سأحجز في الفندق. فكل المسألة أنني لم استطع مقاومة رغبتي في رؤيتك، وخطيبتك.
- أنا سعيد لهذا. لن تذهبي إلى الفندق، فلدينا في القصر عدداً وفيراً من الغرف... تبدين رائعة.

يبدو أن المطعم كله يوافقه الرأي، فقد اتجهت الأنظار كلها إلى المرأة

الشقراء، ذات العينين الزرقاوين.
قالت الفتاة بعد أن طبعت قبلة على خدِّه.
- لقد مرّ وقت منذ رأيتك.
تملكت ليليان رغبة في ضربها... كيف تجرؤ على تقبيله أمامها؟ عندما تصاعد غضبها ركلت أرماندو على ساقه بحدة. فاستدار إليها بحدة:
- لماذا فعلت هذا؟
- لأنك لم تقدمني لها يا حبيبي؟
قالت ماريا بفرنسية متينة:
- علي يقع اللوم فقد فاجأته... أنا ماريا روسيني وأنت برتا.
- صح... هل حضرت حقاً خصيصاً للقائي؟
- بالطبع... لم استطع الانتظار لرؤية الفتاة التي أسرت أخيراً الأعزب الأكبر والأشهر في إيطاليا... أنت محظوظة جداً.
- قد يقول أصدقائي الشيء نفسه له.
قاطعهما أرماندو:
- سيكونون على حق.
لكنه أفسد قوله باهتمامه بالفتاة الإيطالية. فأحست الفتاة بما قد تفكر فيه ليليان فقالت لها:
- أرجو أن لا تظني بأنني جئت لأسرق أرماندو منك؟
قاطعهما أرماندو ليقول بخبث:
- برتا لا تغار أبداً بل إنها تسر برؤية صديقاتي.
علمت ليليان بأنه يتذكر حادثة سكبها القهوة في حفلة العشاء. قالت له ماريا مقترحة:
- ما دام الأمر كذلك لِمَ لا نسافر معاً لقضاء بضعة أيام في نابولي؟
- فكرة عظيمة ما رأيك برتا حبيبتي؟

مع أن فكرة قضاء أيام بصحبته في بلد ساحر مثل نابولي بدت لها ساحرة، لكن معرفتها بأن هذه الفتاة ستكون معهما أفسد الفكرة... إنني مجنونة! لماذا

www.elromancia.com

أشعر بالغيرة؟

كرر أرماندو:

- حسنا يا برتا... هل أعجبتك الفكرة!

- تبدو مذهلة... ولكن ألم نأت إلى هنا لنكون مع أمك؟

بدا عليه وكأنه يقدر كلامها، فاستدار إلى ماريا.

- برتا على حق. لن نذهب.

قالت الفتاة مؤاسية:

- حبيبي المسكين... أنت كنت تسأم دائماً من الحياة الريفية.

- هذا ليس صحيحاً، فحياة المدن رائعة عندما يكون المرء أعزب... لا مكان أفضل من الريف لتأسيس عائلة.

فرفعت حاجبيها:

- عائلة؟ لا أخالك تستمتع بصراخ الأطفال وبكائهم.

فقاطعتها ليليان:

- أنت لا ترين إذن أبعد من أنفك.

- بل العكس هو الصحيح على ما أعتقد.

ضحك أرماندو على ليليان وسألها:

- هل يمكن أن تتصوريني أعطي الرضعات للأطفال؟

- لأطفالك أنت، أجل فأنت تحب مراقبة الأشياء تنمو، وستجد نمو الأطفال أكثر متعة من نمو الزيتون!

فتمتمت ماريا:

- وأنت ستكونين أماً مثالية.

قال أرماندو بحدة:

- إنها الآن خطيبتي فقط.

جاءت فرصة ليليان عندما انحنى فيتوريو ليترجم لها لائحة الطعام كما حصل معهما في أول لقاء في روما. وسألته بصوت منخفض جداً:

- هل تعرف كلوديا مارينو؟

- كلوديا؟... أجل، لماذا؟ لم أرها منذ سنوات، لِمَ السؤال؟

- لقد ذكرها لي أرماندو بالأمس.

- إنه يقرنها بليليان دي روشفور... فقد كانت تهيم به، وهي صغيرة. لكنها كانت وقتذاك جميلة جداً.

- كم عمرها الآن؟

- هي في اوائل العشرينات، على ما أظن.

- لدي إحساس بأن أرماندو معجب بها.

- أشك في هذا، فلقد رآها منذ مدة قصيرة وقال عنها إنها وردة دون رائحة.

- وهو الآن يجري وراء الرائحة!

- كلما كانت غريبة كان هذا أفضل له... ورائحتك...

تنهد، ثم انحنى إليها أكثر فردت متصنعة البراءة.

- إنها «جوي» قد يكون لأي فتاة هذه الرائحة إن كانت تملك المال.

أعاد سعال الساقي الخفيف اهتمام فيتوريو إلى لائحة الطعام. مما تركها ذلك حرة مع أفكارها... إذن لكلوديا وجود، لكن من الواضح أنه اخترع قصة خطبتها ليحمي نفسه من «برتا» التي يستخدمها بحماية نفسه من ليليان! ما أروع هذه الشبكة من خيوط العنكبوت التي يحيط نفسه بها، وما أروع المرح الذي ستحس به يوم تخنقه به!

أعادت الفكرة لها شهيتها، فغرقت بالتهام أصناف الطعام المسيلة للعاب الموضوعة أمامها... وهي تمعن التفكير في الطرق الكفيلة بتركيع هذا الرجل المتعجرف... لكن كيف يركع وطلب الزواج على طرفي شفتيه؟!

●●●

www.elromancia.com

٨ ـ دائماً وإلى الأبد

كان الوقت مبكراً بعد الظهر عندما عادوا إلى القصر... ماريا برفقة فيتوريو في سيارة، وليليان برفقة أرماندو... ما إن التفت السيارة نحو الطريق الداخلية الموصلة إلى القصر، حتى أحست ليليان بإحساس غريب أشعرها بأنها تعود إلى البيت وهو إحساس غير متوقع أقلقها.

وجدوا الدونا دوفيللي، تستظل تحت مظلة واسعة على المرجة العليا. ابتسمت عندما اقتربوا، فردَّ فيتوريو ابتسامتها بأخرى حارة بينما ردَّتها ماريا بابتسامة باردة.

سأل أرماندو وهو غارق في عمق مقعد الحديقة:

ـ ما اقتراحاتكم لتمضية الوقت؟

فقالت ماريا:

ـ أحب لعبة تنس.

رفع أرماندو حاجبه ساخراً في وجه برتا:

ـ هل تلعبين التنس؟

ردت عليه بحلاوة:

ـ لست لاعبة ماهرة، لكنني أستطيع إصابة الطابة وإيصالها إلى جهة اللاعب الآخر.

قاطعها فيتوريو:

ـ فلنتريث قليلاً حتى يبرد الجو.

علمت ليليان بأنه يحاول حمايتها... إنه حقاً طيب... يوازي رجلين من

أمثال صديقه المتعجرف!

ـ سنلعب وأرماندو وحدنا.

قاطعتها ليليان بسرعة:

ـ هذا هراء! أنا مستعدة حالما تصبحين مستعدة.

فقال أرماندو:

ـ الأفضل أن تشاركيني إذن... سأقوم عنك بالركض.

لحقتا بالرجلين إلى غرفة الألعاب لانتقاء المضارب. قالت لها ماريا وهي تقف قربها:

ـ أخبرني فيتوريو بأنكما حديثا العهد بالخطوبة... فأين التقيتما؟

بما أنها لم تعرف ما أخبرها فيتوريو عن الموضوع فقد تغاضت عن الإجابة وسارعت قبل الفتاة الأخرى إلى ملعب التنس. ماذا يظنون ببرتا الآن؟ هل عليها ألا تصيب الهدف؟ ولكن هذا لن يرضيها... وربما عليها أن تلعب بين بين!

تركت عمداً معظم الضربات وهي تخفي ابتسامتها كلما رفع أرماندو يديه إلى السماء. وقد حافظت على هذا المستوى من اللعب ثلاث جولات، كانت خلالها شاكرة لأرماندو سرعته الفائقة ودقته، التي أنقذتها أكثر من مرة من تسديد ضربة مباشرة إلى ماريا.

كانت الفتاة وفيتوريو خصمين رائعين، ولكن ليليان تعرف أنها لو لعبت على سجيتها لمسحت الأرض بهما... وقد تدفع أي ثمن لرؤية وجهيهما إن فعلت هذا!

شجعها فيتوريو وهما يتبادلان المراكز:

ـ أنت تلعبين جيداً.

فتدخلت ماريا:

ـ أنت تعني أن أرماندو يلعب جيداً. كان عليه أن يلعب وحده!

كان عليه أن يلعب وحده إذن...؟ لن يكون هذا الشعر الأحمر لليليان عبثاً... ستمسح هذه البسمة الساخرة عن وجه الفتاة وإن كان هذا آخر شيء

www.elromancia.com

تفعله في الدنيا!

ساعدها الحظ على ما تصبو إليه ذلك أنه كان دورها في الإرسال رمت الطابة في الهواء بحركة لا جهد فيها، وأرسلتها فوق الشبكة نحو الفتاة الأخرى... التي راقبت الطابة بذهول تمر بها... صاحت بها:

ـ هذه رمية لولبية!

فقال أرماندو مبتسماً:

ـ هراء!

ابتسمت ليليان أيضاً ثم أرسلت بحذر طابة عادية إلى فيتوريو الذي أعادها بسرعة منخفضة، فنظرت إلى أرماندو ليتنحى عن الطريق، وقفزت إليها لتضربها بقوة باتجاه ماريا حيث مرت بها على مسافة شعرة واحدة. وحدق الثلاثة إلى ليليان وشهق فيتوريو:

ـ ضربة لا تصدق!

فهزت كتفيها دون اكتراث:

ـ رمية حظ!

منذ تلك اللحظة راحت تسدد كل ضرباتها إلى الفتاة الأخرى. فلم تفلت منها إلا ضربة واحدة. شعرت الفتاة الأخرى بالإحباط والغضب فكان من أرماندو أن قال لها بغبطة لم يستطع كبحها:

ـ إن برتا أبرع منك!

التوى فمه بالمرح وهو يهنىء ليليان، بتعبير موجز:

ـ لا شك في أنك حصلت على تدريب ممتاز... فمع قليل من التمرين قد تؤهلين للمشاركة في ألعاب «ويمبلدون»!

رفعت رأسها لتسبقه خارج الملعب قائلة:

ـ ثمة أشياء أفضلها على رمي الكرة جيئةً وذهاباً فوق الشبكة.

ـ أهو تنفيض الغبار والتنظيف؟

ـ ماذا في هذا؟

ـ لا شيء... أنا لا أقلل من قيمة الأعمال المنزلية، ولكن إذا كان لديك

مواهب أخرى فاستخدميها.

ـ إذن، أنت تعتقد أن لدي مواهب أخرى؟

ـ أجل... وأعظم مواهبك هي إثارة غضبي بطرق ملتوية!

ـ وأصغرها؟

لكنه لم يلتقط الطعم بل اتجه إلى ماريا التي كانت تعالج جروح غرورها. قال:

ـ لنسبح قليلاً.

أضاء وجه ماريا حالاً. أما ليليان فلم تقدر على تحمل منظرهما وهما يمرحان في البركة، لذا اعتذرت منهما وطلبت الإذن بالصعود إلى غرفتها لتستحم... فقال لها أرماندو ليغيظها:

ـ ألا تجيدين السباحة!

فردت بكبرياء وهي تعلم أنه لن يصدقها:

ـ بل أنا سباحة ماهرة.

رفعت رأسها ثم ابتعدت.

بعد حمام بارد وقفت تتأمل المروج القريبة الخضراء وبساتين الزيتون الأكثر اخضراراً والأشجار المصفوفة في صفوف منتظمة فوق سجادة رائعة من التراب البني. يا لهذه الأشجار المعتنى بها خير اعتناء. ليت أرماندو يُعنى بالنساء كما يُعنى بأشجاره.

لكن لماذا يهتم بهن وهن راضيات بما يفعله؟ ولكن ما شأنها وكل ما يهمها هو ماذا سيفعل خلال اليومين القادمين.

فكرة مغادرة القصر أشعرتها بحزن تصاعد مع كل خطوة في الممر. لقد أمضت أسابيع في هذا القصر حتى باتت منجذبة إليه كما تنجذب الإبرة إلى المغناطيس.

غرقت في أفكارها، وأكملت مسيرها في الخارج حتى وجدت نفسها على طريق ترابية تحد بستان الزيتون الذي شاهدته من نافذتها. كانت أغصان الزيتون

www.elromancia.com

الخضراء في كل مكان، مليئة بالحبوب القاسية الواعدة بالزيت الوفير... أحست وهي تتجول بين الأشجار بشوق غامر إلى أن يكون أرماندو قربها... ليس هنا أو الآن فقط... بل دائماً وإلى الأبد.

دائماً وإلى الأبد؟ اوه... يا إلهي! كيف كانت عمياء إلى هذه الدرجة؟ كل عاطفة أثارها فيها: الغضب، المرح، والازدراء والإعجاب تجسدت كلها الآن في حقيقة واحدة مخيفة.

إنها تحبه...

هي وقعت بغباء في حب أكثر الرجال أنانية. هي... هي من اعتبرت نفسها دائماً المرأة المتحررة، وقعت في حب هذا الماجن المتعصب الذي لا تعدو أن تكون المرأة لديه لعبة.

صدمتها الحقيقة فلم تعد تستطيع الحراك. أمها كانت على حق عندما حذرتها من اللعبة الخطيرة. فلطالما انقلب السحر على السّاحر! وبرتا رغم لكنتها الريفية الفرنسية وشعرها البرتقالي هي نفسها ليليان...

تابعت سيرها في محاولة منها لتفسير مشاعرها بعقلانية... ماذا عند أرماندو ليقدمه إليها أكثر من الآخرين؟ القصر وبساتين الزيتون؟ طريقة حياة توافق هواها؟ عبست وقد أدركت أن حبها له لا علاقة له بالممتلكات، بل نابع من حاجة لن يقدر أحد من البشر على إيفائها.

قاطعت حركة خفيفة أفكارها فتوقفت... أحست بالأسى لأنها كادت تدوس عصفوراً صغيراً... أحد جناحيه ملتوٍ بشكل يؤلمه، والآخر عالق تحت قدمه... فانحنت فوقه:

ـ يا للمسكين!

ارتجف العصفور تحت أصابعها، فكان أن أطبقت بحذر شديد راحة يدها فوقه ورفعته لتصلح اعوجاج جناحيه ثم مسحت برقة الريش على صدره واستحوذ عليها عملها هذا كل الاستحواذ فلم ترفع رأسها إلا بعد أن هبط عليها ظل، كان لأرماندو الذي سألها:

ـ ماذا تحملين؟

ـ عصفوراً تأذى جانحه.

ـ دعيني أراه.

ـ كن رفيقاً به.

ـ أنا دائماً رفيق بالعصافير خاصة الإناث منها!

تناوله منها بحذر شديد، فسألته متجاهلة مرامي تعليقه:

ـ كيف تعرف الإناث؟

ـ من علاماتها الفارقة... ستكون على ما يرام... سأنقلها إلى بيدرو ذي اليد الشافية.

ملست ليليان الرأس الصغيرة، فتمتم أرماندو:

ـ يا للعصفور المحظوظ.

خفق قلبها بجنون وقد شاهدت البريق الدافىء في عينيه وأضاف:

ـ أعني أنه محظوظ لمرورك به... ماذا تفعلين هنا على أية حال؟

ـ لقد جئت لأتأمل البستان ولألوذ إلى الصمت والهدوء... شعرت بالزمن يمر دون أن أشعر به.

ـ هذا ما تقوله أمي... هل سبق أن ذكرت هذه الجملة أمامك؟

ـ ألا تظن أنني قادرة على أن يكون لي مشاعر خاصة؟ أم أنك تصدّق رأيك عني بأنني بلهاء؟

ـ بالطبع لا... مع أنك غالباً ما تدعين هذا! حتى عجزت عن سبر أغوارك يا برتا.

وابتهجت لأنه استطاع أن يرى شيئاً منها تحت هذا المظهر الذي تدعيه. أحست بالسعادة. فلعلها لم تخسر بعد كل شيء. فمع قليل من الدفع قد يقع في حب برتا... في اللحظة التي ستعرف هذا... ستعترف له بكل شيء!

ـ فلنأخذ العصفور إلى بيدرو.

ارتدَّ على عقبيه مبتعداً حتى ظنته هارباً من شيء... ربما من مشاعره؟ أحست فجأة بتصميم على انهاء كل شيء هنا حالاً!

ـ أرماندو... انتظر! أريد أن أكلمك.

تمتم وهو يتابع مسيره:

ـ ما خطبك؟

قبل أن تتاح لها فرصة الكلام ظهرت ماريا بين الشجيرات الشائكة، ملتفة «بكومينو» حريري لا يكاد يخفي ثوب السباحة الذي ترتديه تحته. سألت:

ـ ماذا تحمل يا أرماندو؟

دنا منها:

ـ تعالي وانظري.

انحنى الرأسان فوق راحة يده، فتراجعت ليليان بسرعة نحو القصر، وهي تشكر الله لأن الفرصة لم تتح لها للاعتراف.

يبدو أن أرماندو بحاجة إلى تلقن درس... ولن يتم هذا إلا في الوقت الذي سيقع رأساً على عقب في حب «برتا» وعندما سيعترف لها بحبه ستكشف له عن هويتها الحقيقية.

لكن... آه ليت هذا يكون في القريب العاجل.

●●●

٩ ـ فدية ملك

فتحت ليليان خزانة ملابسها وأخذت تنظر إلى مجموعة الثياب الرائعة التي اشتراها لها أرماندو... لكن يبدو أن لا أهمية لما ترتديه، فماريا ستفعل المستحيل لئلا ينظر إلى سواها! لكن... لماذا الاهتمام بمثل هذه الأنثى المتعجرفة! إنها تقوم بتمثيلية ستؤديها ببراعة.

بعد ثلاثة دقائق، أبلغتها صورتها في المرآة أنها لم تبدُ يوماً أكثر جمالاً. ومع ذلك فلم تكن راضية. فاستدارت يميناً وشمالاً... ثمة ما ينقص. عرفت ما هو... العنق يصرخ مطالباً ببعض الحلي.

لكن ماذا؟ فتشت بين أغراضها إلى أن وجدت قطعة زجاجية براقة على شكل حلية كانت تحتفظ بها تعويذة منذ طفولتها... ربطت القماش الأسود المتدلي منه حول رقبتها، فغطت بعناية القماش الرخيص تحت شعرها. بدت تكسرات الزجاج فوق بشرتها وكأنها ماسة قادرة على أن تفقأ عيني ماريا الحسودتين! وأكملت زينتها بوضع قرط استعارته من برتا الحقيقية... عظيم!... بدت وكأنها تساوي مليون دولار!

تساءل أرماندو عندما شاهدها:

ـ هل نحن ذاهبون إلى حفلة ما؟

ـ بالطبع لا... لكنني أردت فقط أن أبدو على خير حال.

التفتت إلى من في الغرفة فرأتهم يحدقون إلى الزجاج المستقر على صدرها.

ـ أليس رائعاً؟ إنها هدية أرماندو.

www.elromancia.com

بدا وكأن ماريا تتميز غيظاً من الحسد... أما فيتوريو المصعوق إعجاباً بما ظنه فدية ملك، فقد بقي فاقد النطق. وحده أرماندو بدا قلقاً لأنه يعلم أنها تنوي شيئاً لن يُعجبه.

- هيا يا بطتي أخبر اصدقاءك لماذا أضعها؟

تمتم لها بصوت منخفض لا يسمعه غيرها:

- كي تسببي لماريا نوبة قلبية.

رفع صوته:

- أخبريهم أنت يا حبيبتي فأنا أرى أنك تتحرقين شوقاً إلى ذلك!

التفتت إلى مستمعيها:

- إنها ذكرى سنوية... منذ أسبوعين كانت خطبتنا في مثل هذا اليوم.

قالت ماريا بصوت عذب:

- يا لهذا الرجل الكريم الذي ستتزوجينه... لكن يجب أن تكوني حذرة في ارتداء هذه الالماسات علناً... فستكونين الهدف الرئيسي للسّارقين.

نظرت ليليان إليها نظرة مدمرة، ثم ألصقت نفسها بأرماندو... فتوتر جسده، وأبرز لها ازدياد اسمراره شدة توتره الذي سببه ضغط جسدها عليه، والإثارة التي تبعثها شفتاها المرتجفتان عمداً وهما تتجهان إليه. تحولت عيناه الزرقاوان إلى اللون الرمادي، وأخذت أنفاسه تتسارع. فأمسك رأسها ليهمس في أذنها:

- أنت فاسقة... ما هذه اللعبة الجديدة التي تلعبينها؟

ردت بصوت خفيض:

- أنا أحذر ماريا لتبتعد عنك.

- ألا يمكن أن يتم لك هذا بطريقة أفضل... أدفع أي شيء في الدنيا مقابل أن أمدّدك على ركبتي وأضربك على قفاك!

- اوه يا إلهي! أنت بدائي!

- قد أصبح بدائياً بكل سهولة معك.

دخلت الدونا دوفيللي... فأجفلت المرأة لحظة وقد رأت تألق ليليان،

لكنها عادت فاستعادت وعيها.

- يا عزيزتي... أنت رائعة... لقد أخجلتنا جميعاً.

- لم أقصد ذلك.

أحست بالذنب من جديد لأنها تخدع هذه المرأة اللطيفة. سألت ماريا مضيفتها:

- أعتقد أنك شاهدت هدية ابنك لبرتا؟

التفتت عينا العجوز إلى القلادة ثم ارتفعتا إلى ليليان وقد ظهرت الغمازتان على عينيها.

- إنها رائعة كصاحبتها... أظن أنه قد حان وقت العشاء.

سيكون عشاءاً رائعاً فاخراً، يحيطها فيه مضيفة ساحرة ورجلان وسيمان أحدهما حبيبها. وجود ماريا فقط يفسد عليها روعة الجو!

قاطع فيتوريو أفكارها:

- أهبك أي شيء لأعرف أفكارك.

- كنت اتساءل كيف سأشغل وقتي لو بقيت هنا بصورة دائمة.

فقال أرماندو:

- لن نبقى هنا بصورة دائمة... لأننا سنمضي معظم أوقاتنا في إسبانيا.

- صحيح... يا إلهي لا أخالني سأسافر إلى إسبانيا!

سألت ماريا:

- متى ستتزوجان؟ أم أن خطوبتكما من تلك الخطوبات الدائمة؟

فقالت ليليان غاضبة:

- أنا لست من ذلك النوع من الفتيات.

مالت إلى أرماندو:

- متى ستتزوج يا حبيبي؟ يجب أن أعرف لأنتقي ثوب العرس وثوب الوصيفة.

- انسي أمر الوصيفة فلا أرغب في زفاف ضخم.

فقالت أمه محتجة:

www.elromancia.com

ـ حقاً يا أرماندو! أليس لرغبات برتا حساب لديك؟

ـ أنا واثق من أنها ستقوم بما يسعدني يا أمي.

فقالت ليليان:

ـ ليس عندما يكون للأمر علاقة بزفافي... أريد حفلة زفاف ضخمة وقالب حلوى بثلاث طبقات و...

فقاطعها أرماندو:

ـ سنناقش هذا فيما بعد.

حلَّ الظلام وأضيئت الأنوار. فدخلوا غرفة الجلوس حيث قدِّمت لهم القهوة. وبعد وقت قصير اعتذرت الدونا دوئيللي لتصعد إلى النوم فاقترحت ماريا الرقص على أنغام الموسيقى.

أطاعها أرماندو فوضع بعض الموسيقى ثم احتواها بين ذراعيه يدنيها منه إلى درجة تجعل الورقة عاجزة عن الوقوف بينهما.

قال لها فيتوريو:

ـ هيا بنا... لنظهر لهذين الراقصين ما هو الرقص الحقيقي.

جذبها إليه... فقالت:

ـ نرقص على هذه النغمات؟

ـ سنغيرها.

تقدم إلى الحاكي، وما هي إلا ثواني حتى صدحت موسيقى البوغي التي تعود إلى الخمسينات. كانت موسيقى صاخبة ارتجّت لها الثريات.

مد فيتوريو ذراعيه إلى ليليان فسارعت إليهما.

لقد أحبت الرقص منذ الطفولة، وقد أتقنته مع الوقت كل الإتقان. كانت حركاتها رائعة الأداء دفعت فيتوريو إلى التجاوب السريع. وما إن بلغت الأنغام ذروتها لفها من فوق رأسه ثم أنزلها عن ظهره، واستدار بها ليتوقفا معاً عند انتهاء الموسيقى.

شهقت لتلتقط أنفاسها، ومالت لتستند إليه، وقلبها يخفق، كما قلبه.

صفقت ماريا لهما:

ـ رائع! هل رقصت على المسرح من قبل يا برتا؟

ـ طبعاً... وعملت مضيفة رقص كذلك... حتى جاء أرماندو فاشترى كل بطاقاتي!

نظرت ماريا بسرعة إلى الرجل الممسك بها. شعرت أن في هذه الخطوبة خدعة ما فهي تحس بأن «برتا» ليس ممن يتفق معه. قالت:

ـ أين التقيتما؟ لا أعرف حتى الآن.

فرد عليها أرماندو برقة:

ـ في قصر دي روشفور... كنا نمضي معاً نهاية أسبوع.

ـ أتعني ذلك المنزل الذي سترثه في فرنسا؟

فهز رأسه إيجاباً... قطع الغرفة ليضع موسيقى ناعمة. انتظرت ليليان منه دعوتها للرقص، لكنه عاد ليأخذ ماريا بين ذراعيه، فكبحت من جديد غضبها.

قال لها فيتوريو هامساً:

ـ لست أدري ما يقصد أرماندو بهذا... من يراه يحسبه ما زال يهواها.

ـ ربما يهواها.

ـ إطلاقاً. لقد انتهت علاقتهما منذ سنوات، وهي علاقة لم تدم أكثر من أشهر معدودة، لكن على ما يبدو أنها لم تفقد الأمل قط.

ـ ألهذا أتيت بها إلى هنا؟

احمرّ وجه فيتوريو:

ـ أردت فقط أن أظهر لك أن لا فرصة لك في الإيقاع بأرماندو إلى الأبد.

ـ ما الذي دفعك إلى هذا الظن؟

ـ أتعنين أن أمامي فرصة للتقرب منك بعد انتهاء هذه التمثيلية؟

ـ هذا وقف على ما تعرضه علي.

رفعت صوتها حتى يسمعها أرماندو الذي مر بهما في هذه اللحظة، وقد أظهر عبوسه أنه سمع ما قالته، فاغتبطت، وضغطت نفسها إلى فيتوريو... لكنهما لم يستديرا خطوتين حتى سمعا أرماندو يقول من خلفهما:

www.elromancia.com

ـ حان دور رقصتي كما أعتقد.

ثم رمى ماريا بحركة سريعة بين ذراعي فيتوريو واحتوى ليليان بين ذراعيه. عندما لمستها يداه غدت برتا طيعة، خفقات قلبها حلقت عالياً وقدماها ما كادت تلامس الأرض، وجسدها استراح على جسده الدافىء. لم يعد هناك حاجة إلى الموسيقى ذاك أن جسديهما تناغما بانسجام كامل، فالشوق إليه عزف ألحانه العذبة والعجز حل في كيانها فما عادت بقادرة على السيطرة على ارتجافها أو على ارتجاف يديها لتحول بينهما وبين أن تشده إليها أكثر فأكثر. يا إلهي! ما أعظم رغبتها فيه. وما أشدّ اشتياقها إلى ذراعيه وإلى يديه وهما تجوبان جسدها.

همس لها:

ـ أنت لست فاسقة فقط، بل ساحرة شريرة. أوقعتني تحت تأثير سحرها.

ـ أنت تخدعني.

ـ كنت أقصد أن أخدع ماريا.

ـ أنت شرير.

ـ لست شريراً مثلك. أنسيت ما فعلته بفيتوريو... إنه ليس من طرازك يا برتا.

أرماندو يغار إذن! رفرفت السعادة في كيانها... لكن يجب أن لا تترك هذه السعادة تغلي. ابتعدت عنه. فقال:

ـ خائفة؟

ـ تعبة! لقد حان وقت النوم.

ـ هذا ما أريده بالضبط.

ـ وحدي.

ـ ها هنا نختلف!

تراجع عنها، ثم أعلن:

ـ سأخلد وبرتا إلى النوم.

فقال فيتوريو:

ـ وأنا كذلك.

صاحت ماريا:

ـ ماذا دهاكم جميعاً؟ السهرة في بدايتها!

قال أرماندو:

ـ بإمكانك مشاهدة بعض أفلام الفيديو إذا أردت.

ـ لا شكراً.

لمّا تبعتهم. اعترى ليليان الفضول لتعرف ما إذا كان سيرافق ماريا إلى غرفتها... وكيف ستكون عليه ردة فعلها إذا فعل. لكنه رافقها هي إلى الجناح الغربي... بعد أن ودّع ماريا وفيتوريو قائلاً: «تصبحون على خير»... أخفت سعادتها وتابعت سيرها إلى أن وصلت غرفة نومها حيث وضعت يدها على مقبض الباب تنتظر منه متابعة سيره. لكنه بقي إلى جانبها... ففتحت الباب.

ـ تصبح على خير أرماندو.

فتحت الباب أكثر فدفعها إلى الداخل وأغلقه خلفهما.

ـ يجب أن نتكلم.

ـ عمّ؟

ـ عنا... أنت لا تمتلكينني يا برتا ولا أريدك أن تنسي هذا!

ـ أمتلكك... لن أقبل بك ولو جئتني على طبق من فضة.

ـ لكنك لم تعطيني هذا الانطباع هذا المساء.

ـ لأنني أردت إزعاج ماريا... ولأعينك على التخلص منها مقدمة لك بذلك معروفاً... إلا إذا كنت تريد إعادة المياه إلى مجاريها من جديد.

ـ أنا لا أريد معروفاً منك... شكراً، فأنا قادر على دفع الإناث المنتهزات الفرص عني... بما فيهم أنت.

ـ أيها الـ... الـ... الخنزير المغرور!

ـ أتشتمينني لأنني أظنك مغرمة بي؟

ـ أليس من المفترض أن أغرم بك. أيها الأبله! ألم تدفع المال في سبيل

هذا...

شاهدت شرر الغضب تطل من عينيه. لكنها تأخرت في التراجع بعيداً عنه لأنه أمسكها من خصرها، فصاحت به:

ـ اتركني!

ـ لن أتركك، فأنت خطيبتي الحبيبة، هل تذكرين؟ وعناق صغير مقابل الألماس الذي يساوي فدية ملك ليس بالكثير عليّ؟

أمسكها من شعرها ليجذب رأسها إليه، ثم أطبق برأسه عليها. بقيت دون حراك، مع أن كل ذرة من كيانها كانت تصرخ بالرغبة فيه. قالت له بكل هدوء:

ـ الرجال الذين يقومون باغواء الفتيات غير الراغبات فيهم ولى عهدهم منذ القرون الوسطى؟

ـ ألست راغبة فيّ؟ لم أظنّ ذلك ليلة الحفلة، ولم أكن واهماً الليلة. وأنا في كل الأحوال لا أطلب منك أكثر من عناق عابر بسيط.

ـ مستحيل!

ـ بل غير مستحيل!

كان سبب انقضاضه بقسوة عليها أنها كانت تتعمد دائماً إغاظته خلال الأسبوع المنصرم فتحول ما يشعر به إلى غضب ورغبة عجز عن كبحهما، أجبرها ضغط ذراعيه على الاستسلام... فتشابكت دون وعي منها، ذراعاها خلف عنقه. وما أن استنفذت حركتهما المتبادلة زخم ذروتها حتى لانت يداه حولها، فأصبحتا أكثر رقة لكن أشدّ غزواً.

لم يعد فستانها يشكل حاجزاً أمام يديه، أو عقبة لأصابعه. تمتم:

ـ ما أبهاك وما أجملك! يا لهذا الفستان، لكنه لن يشكل «حزام أمان» بيني وبينك.

ـ لا تنسى أن لي إرادة حديدية.

لمعت عيناه بالغبطة.

ـ أنت دائماً جاهزة للرد... أليس كذلك يا برتا؟

امتدت يداه تستكشفان... فقالت هامسة:

ـ لا...!

ـ لا؟ لكنني أريدك.

ـ هذا ما أعتقدته.

ـ ولماذا لا؟... أعتقد أنك راغبة؟

توسل إليها:

ـ لا ترفضي.

وتاقت إلى قبول عرضه لكنها عرفت أنها لو فعلت لكشفت له عن حقيقة مشاعرها نحوه. لكنها في الوقت ذاته ما عادت قادرة على التحكم بمشاعرها وبعقلها لذا رغبت أشدّ الرغبة في إطالة هذه اللحظات فقد لا تعود ثانية.

لم تعد ليليان واثقة من قدرتها على تركيع أرماندو والخوف الأكبر الذي اعتمل في داخلها أنهما بعد أن يسافرا ستزول من وجوده بالنسبة له.

تابع كلامه هامساً:

ـ لا تمنعيني عنك... فأنا أريدك إلى حدّ يجعلني عاجزاً عن التفكير السليم. لقد غدوت شوكة في عنقي منذ التقيتك يا برتا... لقد غُرزت عميقاً في لحمي فبت عاجزاً عن انتزاعك!

إنها الكلمات التي طالما تاقت إلى سماعها منه لكن الكلمة الأهم ما زالت مستترة في طيات كلماته... الحب.

كل ما تفوه به كان «الحاجة» و«الرغبة»... والشوق لإرضاء مشاعره التي تعذبه... فهل يظن أن بإمكانه إرضاء هذه المشاعر ما إن تقبل به؟ وإذا وهبته ما يريده، ألن يكون بمثابة وداع لبرتا... شكراً لك على هذه الذكريات؟

شعورها بأن هذا قد يحدث أعطاها قوة لمقاومته فما كان منها إلا أن انسلت من بين يديه... أما هو فصعقته المفاجأة فوقف جامداً في مكانه، متعجباً مما فعلته:

ـ أرجوك يا أرماندو اذهب.

ـ أنت لا تعنين ما تقولين.

- بلى.

تحرك ببطء خارجاً وبشرته تلمع في النور المنخفض للغرفة. راقبته مطأطئة العينين لكنه أدرك أنها تراقبه، فقال:

- يؤسفني رفضك. كنا سنعزف أروع مقطوعة معاً.

- لا تعجبني موسيقى هذه الأيام فهي تتلاشى ما إن تسمعها.

- لكن هذه موسيقى التسعينات.

- إذن أنا لست فتاة من جيل التسعينات.

تقدم نحوها وعيناه لا تبرحان فتحة ياقتها. أحست بأنها رغم القماش الذي يغطي جسدها كأنها عارية أمامه.

قال بهدوء:

- لا يمكنك إنكار رغبتك.

- أنا لا أحب موسيقى البوب بل أبحث عن سيمفونية دائمة الوجود.

- حقاً؟ لكن الفتيات اللواتي يلعبن على رهان مرتفع، ينتهي الأمر بهن إلى خيبة الأمل!

- أنا مستعدة للمخاطرة... ألا تسأم أبداً من موسيقى «البوب» يا أرماندو؟

- حتى الآن... لا. إنها ممتعة ما دامت موجودة... وهي إلى ذلك قابلة للنسيان بسرعة... وهذا ما يناسبني.

كان رده أكبر صدّ قد يعطيه إيّاها. شكرته بصمت لأنه أعاد إليها حكمتها.

سألته:

- وفي أي منزلة تضع كلوديا؟

اغتبطت لتوتره... فليحاول الخلاص من هذا السؤال!

- إنها لا تتناسب مع هذا... إنها سيمفونية، وعندما أبدأ في الاستماع إلى مثل هذه الموسيقى، لن أرغب في سواها.

- وقد أكون سيمفونية أنا كذلك، لكن للرجل المناسب.

- أنا واثق من هذا.

اضاءت ببطء عيناه الزرقاوان، في عتمة الغرفة، وشعتا كبريق الفضة...

ترقبت ردة فعل قوية لكنه استدار مبتعداً. تقدم نحو الباب، لكنه قبل أن يخرج التفت إليها:

- هل تريدين القيام بجولة في البساتين غداً صباحاً؟

أجفلت... كيف وافق الآن وهو أصر على رفض مرافقتها إياه إلى البساتين وتساءلت عما إذا كان تغيير رأيه يعني تغيير تصرفاته معها... هل أصبحت برتا بالنسبة له أكثر من وجه جميل وجسد مثير قد يدفع أجرها ويصرفها من فكره متى شاء! أيفكر في مكانها في مستقبل حياته؟ أيحاول تهذيبها لتحل في قلبه وحياته دائماً؟

- سأحب هذا.

هز رأسه وخرج... فسارعت إلى الحمام لترتدي غلالة نومها... ثم سارعت إلى الفراش... ووضعت الوسادتين فوق بعضهما واستلقت عليهما لتبدأ ببناء القصور على الرمال.

أعادتها طرقة ناعمة على الباب إلى واقعها. فخفق قلبها! أهو أرماندو قد عاد ليجرب حظه ثانية؟ أضاءت المصباح قرب السرير، وارتدت روب النوم الساتان. ثم أسرعت إلى الباب.

- من هذا؟

سمعت مذهولة صوت فيتوريو:

- هل لي أن أكلمك يا برتا؟

- فليكن في الصباح؟

- لن أنفرد بك أبداً في وسط جمعنا، أرجوك يا برتا... فلن أمكث إلا وقتاً قليلاً.

فتحت الباب على مضض وأدخلته. ثم عادت لتجلس على حافة السرير:

- حسناً... ما الأمر؟

- لقد جئت لأعتذر... فبعض الأشياء التي قلتها الليلة والأسبوع الفائت لا تغتفر.

لم يكن لديها فكرة عما يتحدث، ولكن بما أنه مستعد لأن يقطع رقبته

أمامها فعليها على الأقل التجاوب معه:

ـ أنا... لقد نسيت الأمر.

ـ هذا بالضبط هو الرد الذي تقوله فتاة رائعة مثلك! هذا لا يعطيني العذر على تصرفاتي... لقد عرضت عليك عملاً في روما وليس في نيتي إلا إقامة علاقة معك.

فردت بخشونة:

ـ كنت تتبع قائد القطيع في هذا!

ـ لكن هذا آخر ما أريده بالنسبة لك. لكنني لم أدرك هذا سوى الليلة، عندما شاهدتك ترقصين معه... أحبك يا برتا... وأريدك زوجة!

ـ زوجة؟

لم تكمل كلامها لفرط ذهولها. فرد بشوق:

ـ أجل... عندما ينتهي ما بينكما، أتمنى أن تبقي في روما، فتسمحين لي بالتقرب منك. لن أستعجلك يا حبيبتي! لكن لا أريدك أن تخرجي من حياتي.

ماذا ستقول؟ بدا وكأن الواجهة المتمدنة التي يظهر بها أمام الناس، قد حل مكانها رجل هش، مرهق، تتدفق منه العواطف العاجز عن كبحها. أعجبها الآن بعض الشيء أكثر من ذي قبل، لكن ما تحته الآن لن ينقلب إلى حب. لعل أكثر ما أزعجها أنها جرحته... فلم تدرك من شدة غبائها ما يحدث...

ـ أنا آسفة يا فيتوريو... لكنك... ستبقى دائماً صديقاً عزيزاً لطيفاً... لكن لا شيء آخر.

ـ كيف لك أن تكوني واثقة؟ لو ازددنا تعارفاً...

ـ لن يُحدِث ذلك أي جديد. فالحب ليس أمراً يمكن اضاءته كما تضيء النور.

ـ لكن قد ينمو... لا ترفضيني.

ـ لكنني مضطرة... أرجوك... انسني يا فيتوريو.

ـ لا أستطيع... أنا آسف يا برتا... فآخر ما قد أريده هو أن أكون مصدر إزعاج لك... لكن تذكري أمراً. إذا احتجتني... فسأكون موجوداً على

الدوام.

هزت رأسها بصمت مغرورقة العينين وهي تراه يخرج. ودفنت رأسها في الوسادة... وهي تشعر بالذنب لأنها جرحت مشاعر فيتوريو.

انتقلت أفكارها إلى سحر تلك اللحظات التي قضتها مع أرماندو. يا ترى هل اساءت تفسير تصرفه؟ وعرضه بمرافقتها إلى البساتين أيعني شيئاً؟

عرضه يشير إلى رغبة في تغيير مسار علاقتهما... وهذا ما فكرت فيه منذ لحظات، ومن الغباء ترك جرح فيتوريو يؤثر على شكوكها في حكمها... أرماندو يحب «برتا» وهذا ما هي واثقة منه... ولكنه ما زال خائفاً من فروقاتهما الاجتماعية.

بعد تنهيدة عميقة، مسحت ليليان الدموع عن عينيها... فقد أزف الوقت لتخفف من قساوة التصرفات التي تبنتها، ولتعود أكثر إلى حقيقتها! لن تضحك بخفة بعد الآن. ولن تكثر من إظهار لكنتها الريفية. في الغد ستظهر له سرعتها في استيعاب ما تتعلمه!

عند هذه الفكرة السعيدة، تكورت في الفراش، وغطت في نوم عميق.

●●●

١٠ ـ الحب والرّغبة

استيقظت ليليان باكراً بعد ليلة قلقة... وبقيت مستلقية تفكر في أرماندو. فإحساسها بذراعيه اللتين أحاطتاها ما زالت حية، وهي الآن تتوق إلى الإحساس بهما من جديد.

لكن التفكير لن يجدي نفعاً، لذا هبت من مكانها لتستحم. بعد أن انتهت ارتدت سروالاً وقميصاً يناسبه وقصدت غرفة الطعام لتناول الفطور.

شاهدت أرماندو يقطع الردهة، فابتسمت له وأطلقت تحية الصباح بمرح... فرد عليها مبتسماً:

ـ إنه فعلاً صباح مشرق... أتنضمين إليّ لتناول الفطور معاً!

ـ سأحب هذا.

دخلا معاً الغرفة المضاءة بفعل أشعة الشمس، كانت تعبق في الغرفة رائحة الأزهار العطرة، وهي غرفة تتناول فيها العائلة طعامها عندما لا يكون لديهم ضيوف فهي وإن كانت كبيرة نسبياً، إلا أنها تبدو صغيرة ودافئة بالنسبة لما تبقى من غرف القصر.

سحب لها أرماندو كرسيها لتجلس، وسألها:

ـ كيف نمت؟

ـ بأحسن حال... وأنت؟

ـ غلبني القلق! فمئات التخيلات راودتني.

ـ كان عليك أن تجرب حماماً بارداً!

ـ لن ينفعني شيء وإن كان حمّاماً من جليد!

ضحكت ثم تناولت قطعة «كرواسون» طازجة.

ـ إذن لم يبق أمامك سوى علاج واحد.

فانحنى نحوها وغمز:

ـ أعلم... ربما تساعديني الليلة.

أدهشتها الغمزة لكن خوفها من أن لا تكون بالنسبة له أكثر من ليلة عابرة جعلها تعيد التفكير من جديد... فجأة فقدت الشمس بريقها، وفقد اليوم دفئه، فدفعت عنها طبق «الكرواسون» واكتفت بالقهوة.

قال لها بعفوية وهو يصب فنجان قهوة آخر:

ـ على فكرة... لقد طلب فيتوريو وماريا مني أن أبلغك تحيتهما... لقد غادرا عند انبلاج الضوء بعد أن تلقى فيتوريو مخابرة عمل من روما.

عذر معقول... تساءلت عما قد يقول أرماندو لو عرف أنه زارها في غرفتها... لكن ليست لديها النية في إحداث أي صدع بين الصديقين. سألها أرماندو بمرح:

ـ ما الذي يشغل بالك؟ تبدين تائهة في أفكارك، شاردة.

تصنعت الدهشة:

ـ صحيح؟

مد يده ليتناول قطعة بسكويت:

ـ اسمعي يا برتا. لعلك لم تكوني فكرة خاطئة عني ليلة أمس؟

أحست بالغثيان... إذن هي على حق:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أعني بشأن جعل خطوبتنا دائمة.

ـ انس ما تفكر فيه، فحالما تنقدني المال... سأنصرف... اليوم لو أحببت.

ـ ليس بهذه السرعة يا حلوتي. أريد الحماية إلى أن أسافر إلى إسبانيا.

ـ ألن تحتاج إلى الحماية في بلد تلاحقك فيه السمراوات الجميلات من كل حدب وصوب؟

www.elromancia.com

ـ أنا آمن هناك أكثر مما أنا عليه في هذا البلد فأولئك النساء لن يستخدمنني طعماً للزواج.

ابتلعت غضبها، وقررت الانتقام:

ـ ومع ذلك أظنك كنت مجنوناً عندما استخدمتني غطاء لك في وقت من المفترض فيه أنه لديك خطيبة طيبة.

ـ أخبرتك سابقاً إن أمي ستصر على إخبار أمها، وهذا ما لا تريده كلوديا... وتعرفين الأسباب.

ـ لو كانت تحبك، لأرادت أن يعرف العالم كله بهذا.

ـ لكنها تريد الحصول على إجازتها الجامعية أولاً.

وأنت تريد الاستمرار في الكذب... تذكرت قول فيتوريو... اللعنة! هل يعقل أن رجلاً يقول عمن يحب انها «وردة دون عطر»؟ ساورها الإغراء في تحديه لتكشف خدعته، لكنها تراجعت.

دخلت الدونا دوثيللي، فجذب ابنها الكرسي لتجلس:

ـ لقد استيقظت باكراً يا أمي.

ـ أنا أتوقع قدوم صوفيا.

ـ ومن هي صوفيا؟

ـ هي دونا مارينو... لقد وصلت ليلة أمس برفقة كلوديا وهما تريدان مقابلة مستأجري الأرض الجدد لديهم، بعد انتهائها من مقابلتهم ستأتيان إلى قصرنا لقضاء بضعة أسابيع.

أشرق وجه ليليان عند رؤيتها الانطباع المذهول الذي اعترى أرماندو. ها قد أتت نهاية كذبته. ولم تعد تستطيع الانتظار لترى كيف سيخلص نفسه من هذا الوضع الحرج. تابعت والدته:

ـ سنستعيد ذكرى الأيام الغابرة. كان من المؤسف حقاً مغادرتها المنطقة إثر وفاة زوجها.

سألها أرماندو بصوت مختنق:

ـ متى ستصلان؟

ـ هذا الصباح.

ـ حسناً من الخير لي الغاء كل مواعيدي هذا اليوم.

التفت إلى ليليان التي تظاهرت بأنها لم تلاحظه وهو يخرج مسرعاً من الغرفة. وخوفاً من أن يتصل بكلوديا ليخبرها عن كذبته ابتلعت قهوتها... وأسرعت إليه.

سمعت صوته في الخارج... فلحقته بكل سذاجة وشبكت يدها بذراعه متجاهلة حديثه مع مدير أملاكه.

ـ أنا أتكلم عن العمل يا برتا... لماذا لا تذهبين؟

ـ أريد البقاء معك.

مسحت خدها بكتفه، فشاهدت مدير الأملاك يبتسم. تابع الرجلان مناقشتهما بينما كانت ليليان تصغي باهتمام رغم تظاهرها بأنها لم تفهم كلمة مما يقال، أخيراً ذهب الرجل العجوز، فحاول أرماندو بنفاذ صبر التحرر من يدها الممسكة به.

ـ اسمعي برتا، لدي بضع مكالمات عاجلة، فلو تتسلين...

حاول من جديد تحرير ذراعه من يدها، لكنها أحكمت تمسكها به. أيعتقد أنها ستعطيه فرصة يستطيع خلالها الاتصال بكلوديا؟

بينما كانا واقفين طالعتهما سيارة «فيات» ذهبية، توقفت بحدة على بعد ياردات، لترسل رذاذاً من الحصى المتطاير.

تصلب أرماندو، وارتفع اللون الأحمر القاتم إلى وجهه... عندها أحست ليليان بالأسى عليه وهو يسير متصلباً نحو السيارة.

حيته امرأة ممتلئة الجسم ترتدي ثوباً رمادياً يماثل شعرها لوناً.

ـ تسرني رؤيتك يا أرماندو!

نزلت بكل وقار وفخامة من السيارة، هي امرأة طويلة بعض الشيء صدرها جاحظ إلى الأمام... لا يصدق المرء أنها والدة تلك الأنيقة التي لحقتها.

ترك أرماندو المرأة العجوز البارزة الصدر وأسرع إلى الفتاة الأخرى

www.elromancia.com

يعانقها. قالت كلوديا بخفة:

- عزيزي أرماندو.

مدت يديها، فأخذهما ورفعهما إلى فمه...

أحست ليليان بالتوتر، ووبخت نفسها: لا تكوني حمقاء! لقد كانا جارين لسنوات لذا هما صديقان. تقدمت إلى الأمام، فرمقها أرماندو بنظرة قاسية، ثم قال:

- هذه برتا، خطيبتي.

قبل أن تبتسم المرأتان لها، كان أرماندو قد استدار نحو صندوق السيارة، ليخرج حقائبهما.

تقدّم النسوة ليقودهن إلى القصر. كانت الدونا مارينو قد سارت في محاذاته بينما بقيت كلوديا مع ليليان، لكنها لم تتكلم معها إلا بعد أن أصبحتا وحدهما فقالت بابتسامة ودودة:

- لقد أخبرني أرماندو عنك كثيراً.

- لقد أخبرني أيضاً الكثير عنك. هل دهشت عندما أخبرك عن علاقتنا؟

- لا... فقد أخبرني عنها منذ عدة أسابيع.

ومرة أخرى انتشر الشك البارد للمرة الأولى في شرايين ليليان... هل كان أرماندو يقول الحقيقة إذن؟ عليها أن تكتشف هذا. أجبرت نفسها على الضحك:

- أرماندو مراوغ كبير. ولن أستريح قبل أن أقدمه إلى المذبح.

جاءها الصد اللطيف:

- لا داعي إلى الادّعاء ونحن وحدنا.

ابتلعت ليليان ريقها... لعل الوضع التبس على فيتوريو فكلوديا هي حقاً خطيبة أرماندو!

رغبت في الصراخ والضرب، في الهرب والاختباء. لكنها لم تفعل شيئاً، سمرها كبرياؤها. تمتمت كلوديا:

- لقد شحب لونك. أأنت مريضة؟

تماسكت ليليان بعد جهد جهيد فقالت:

- إنها درجة حرارة الطقس... يجب أن أقول إنك وأرماندو زوج غريب. سأكون ملعونة إن أخفيت حبي لأن أمي متسلطة!

اعترفت كلوديا:

- لا علاقة للأمر بأمي... أستطيع بسهولة أن أواجهها لو أردت.

- إذن، لماذا...؟

- لأنني لا أحب أن أستقر بعد. وأرماندو قد يكون زوجاً متطلباً. لكنه خطيب رائع.

لمعت عيناها السوداوان بخبث:

- بحق السماء، لا تقولي هذا له لئلا يغضب.

فهزت ليليان كتفيها دون اكتراث:

- لا يهمني ما تفعلان... مع أنني أظن أن هذه طريقة تصرف شاذة.

- حقاً؟ لكنني أجد السريّة أكثر رومانسية وإثارة.

اللون الزهري الذي علا وجنتي كلوديا أعلم ليليان بأنهما عاشقان... تلظّت بنيران الغيرة... لكن امرأة أخرى على لائحة نساء أرماندو لن تشكل فرقاً كبيراً. هل تعرف كلوديا أي صنف من الرجال تضع ثقتها فيه؟

خرج أرماندو لينضم إليهما:

- أما زلتما في الخارج؟

وضع يده على كتف كلوديا وتابع:

- ارتدي ثوب السباحة وهيا بنا إلى البركة.

استدارت الفتاة معه إلى القصر:

- فكرة رائعة، لم أشاهد البركة منذ بنيتها وأنا...

تلاشى الصوت عبر جدران الممر الكئيبة. أما هي فتركتهما يبتعدان عنها قبل أن تصعد إلى غرفتها وتغير ملابسها، ارتدت بسرعة ثوب السباحة، ووضعت نظارة شمسية فاخرة، وأسرعت إلى الحديقة.

لقد ظنت في البدء أنه سهل عليها التخلص من كلوديا، لكن الواقع أكدّ لها

www.elromancia.com

عكس ما تعتقد. لعل مشاعر أرماندو ليست عميقة تجاهها لكنه يعتبرها خير أم لأطفاله.

اخففت من سيرها لتنظر إلى فراشة جميلة تقف فوق وردة قرمزية اللون... فجأة انقلبت الفراشة في نظرها إلى كلوديا والوردة إلى أرماندو... اوه... يا إلهي! لا مزاح بعد الآن... أنا واقعة في بئر عميقة أكثر مما كنت أظن... وإن لم أجعله يحبني...

لم تجرؤ على الإمعان في التفكير أكثر... فهنا يكمن بؤسها، وهي لن تحارب كلوديا دون مبرر... وليست وريثة عناد دي روشفور عبثاً.

دي روشفور...! أوقفها الاسم في مكانها... قد يجد صعوبة في الاختيار بين كلوديا وبرتا... ولكن ماذا لو خيّر بين كلوديا وليليان؟... لا... يجب أن يحبها أرماندو كما هي... بكل ما فيها...

رمت روبها على الطاولة واضطجعت فوق مقعد تظلله مظلة فبانت تقاسيم جسدها المغري التي لم يكد ثوب السباحة ذي القطعتين يخفي إلا القليل القليل منها. وها هي حرارة الجو تضرب جسدها وبشرتها الذهبية بينما أفكارها تدور كأنها في دوّامة. بعد لأي عن التفكير استنتجت بأن حرارة الشمس وتغريد العصافير لا يتوافقان مع التفكير السليم. فجأة سمعت صوت ضحكة تعلن كالجرس عن وصول كلوديا وأرماندو.

رنت ضحكة أخرى، فشدت على أسنانها وقد شاهدت كلوديا تتمدد على فراش قريب مادّة ذراعيها فوق رأسها، مما جعل القسم الأسفل من المايوه الذي ترتديه ينخفض أكثر، حيث يطيب لأي عين اللحاق به! وما من شك في أن أرماندو قد فعل، فقد ثبت عيناه عليها وهو يستلقي بينهما.

رفضت أن تتحدث إليهما، فلاذت بالصمت... لكن أرماندو سارع ليقول لها بغضب بعد أن ذهبت كلوديا لتغطس قدمها في الماء.

ـ كوني حلوة المعشر معها أكثر.

ـ لماذا؟ إنها حبك السري، لا!

ـ مياو... مياو! أتغارين؟

نسيت وعدها بأن تكون لطيفة معه، فصاحت:

ـ لن أغار عليك مطلقاً. فعتبات سحرك منخفضة جداً لدي يا أرماندو... فأنت تجري وراء أي شيء له سيقان حتى الطاولة لا تعتقها من ملاحقاتك.

فضحك:

ـ أهذا سبب مزاجك السيء؟

ـ فلنقل انني لا أتمتع بأن أكون الإطار الإضافي.

ـ لم أطلب منها المجيء. لقد وصل مستأجرو أرضهم الجدد قبل شهر من موعدهم.

ـ حقاً؟ وأظنها استخدمت هذا عذراً لتقابلك.

ـ أتظنين أنها تغار منك؟

ضحك أرماندو من كل قلبه، فالتفتت إليه بغضب مستعر:

ـ ألا تظن بأنه سيكون لها مبرر لو رأتك في غرفة نومي ليلة أمس؟

أجفل تماماً من تصريحها... فرد عليها بعجرفة:

ـ بإمكان الرجل أن يحب أكثر من امرأة واحدة.

فصاحت به ساخرة:

ـ ليس «الحب» فالكلمة التي تعنيها هي «الرغبة». لك عين كعين القمر الصناعي اللاقط، وقوة احتمال الشموع في المناطق الاستوائية.

ـ سأتجاهل التعليق الأول وأنكر الثاني!

احمر وجهها، فابتسم بحدة:

ـ أنا سعيد لأنك فهمت ما أقصد.

تطلع إلى كلوديا، فلما وجدها تعطيهما ظهره مدّ يده يعبث بأطراف ثوب سباحتها، ولاحظت أنه مسرور بما يفعل، فطغى الغضب على حبها له:

ـ أليس لديك ضمير؟

ابتعدت عن لمسته.

ـ أنا صادق مع نفسي يا برتا الصغيرة... وهذا كل ما يطلبه ضميري مني.

ـ والآن هو يطلبني؟

ـ ألا تعلمين هذا؟
ـ لم أعد واثقة من أنني أعرف شيئاً عنك.
ـ لماذا لا تثقين بالحدس الأنثوي؟
ـ وإذا خذلني حدسي؟
ـ سألتقطك.
ـ وتمسك بي جيداً؟
ـ قبل أن أنزلك إلى الأرض ثانية، بلطف.
ابتسم، ثم وقف وتقدم نحو كلوديا.
لن أطيق هذا... لكن الوقت لا يزال مبكراً... وهي لم تُظهر له بعد الجانب الآمرّ من طبيعتها... سمعته يقول لها:
ـ أما زلت متوترة من المياه؟
فهزت الفتاة رأسها، وقبل أن تسحب قدميها من الماء منعها.
ـ لا تخافي يا حبيبتي. الأبله وحده قد يرميك في الماء... ضعي نفسك بين يديّ لبضعة ساعات وأعدك بأن تتمكني من السباحة مثل البطة، وأن تغطسي قبل نهاية موسم الصيف.
صاحت بهما ليليان:
ـ هل ستستخدم التنويم المغناطيسي لتعلمها؟
التقت عيناه بعينيها عبر الرخام اللماع:
ـ عندما يثق بك أحد، بإمكانك تعليمه كل شيء.
علمت أنه يشير إلى ليلة أمس. فقد كانت بين ذراعيه خائفة من الثقة فيه... وكانت على حق!
احترقت وجنتاها خجلاً، فوقفت متجهة إلى سارية القفز، تسلقت أعلى مستوى لها، ثم قفزت قفزة رائعة إلى المياه... ولكن أحداً منهما لم يلاحظ ما فعلت، فقد كانا غارقين في عالمهما.

سبحت ليليان جيئةً وذهاباً، تارة على ظهرها وطوراً على صدرها. لاحظت أن كلوديا تخاف الماء حقاً فأدهشها صبر أرماندو عليها... لعله ليس

سيئاً كما تخاله! لكنه مزاجي وغير صادق مع النسوة!
أحست بحركة في المياه... فرفعت رأسها وشاهدته يتجه سباحة نحوها... فما كان منها إلا أن سبحت بسرعة، لكنها قبل أن تصل إلى منتصف البركة كان قد تجاوزها. قال معلقاً:
ـ ألم أسمعك تقولين لماريا إنك لست بارعة جداً في السباحة؟ لكنني أراك تسبحين كسمكة!
ـ لا يا سيدي، بل أنني أضع السباحة على قدم المساواة مع لعبة التنس.
ـ هذا يعني أنهما من الدرجة الأولى... أين ومتى تدربت؟
ـ ثمة العديد من المسابح العامة والملاعب المجانية.
قال بنعومة وبصوت خافت:
ـ لو كنت بارعة في الرياضات داخل المنزل كما أنت بارعة خارجه فثمة رجل سيكون محظوظاً للغاية.
ـ ألا تفكر إلا في هذا الأمر؟
ـ طبعاً... فالمرء يشير دائماً إلى ما يمتعه أكثر! مشكلتك أنك ممن يميل إلى الاستقرار... ولكن علاقة حب واحدة ستعدل اعوجاج عقلك.
ـ أوافقك... لهذا أريد أن أتزوج!
ـ أنت قديمة الطراز.
قبل أن ترد بإجابة جارحة سمعا صرخة مدوية جعلتهما يستديران لتطالعهما كلوديا وهي تتخبط في الماء. كان أرماندو خلال لحظات قربها. ورفعها إلى الخارج بينما كانت ليليان تسرع إليه للمساعدة.
ـ حذرتك من النزول إلى الماء بدوني.
شهقت كلوديا:
ـ أعلم لكنني أردت مفاجأتك.
ـ بل أردت إخافتي... دعيني أعلمك، وسترين مدى التقدم الذي ستحصلين عليه.
ارتجفت كلوديا فتناول منشفة ولفها بها... سألت ليليان:

www.elronda.com

ـ هل أحضر لك بعض القهوة؟

فرد أرماندو:

ـ إنها بحاجة لشيء ينعشها... سأحضر لها بعض الليموناضة.

توجه إلى القصر، فقالت كلوديا معتذرة:

ـ ما أشد غبائي... لكنني عندما شاهدتك وأرماندو تسبحان بهذه الروعة... شعرت بأنني غبية... و...

ـ ستسبحين عندما تثقين بنفسك وإن كان هنا من إنسان قادر على إعطائك هذه الثقة فهو أرماندو.

ـ أعلم... إنه أهل للثقة. فهو منذ الطفولة يعرف ما يريده من الحياة وها قد حصل على كل ما كان يريد.

لم تستطع ليليان إلا أن تضيف:

ـ مع لقب قادم.

فردت كلوديا:

ـ هذا ما قد يتجاوزه بسعادة... أنا أقدر رغبة آل دي روشفور في تزويجه ابنتهم. لكن بما أنه رجل حسّاس فذاك الزواج لن ينجح.

ـ أضيفي إلى ذلك حبه لك.

انقطع حديثهما عندما دنا منهما وقع خطوات أرماندو الذي حمل صينية عليها إبريق ليموناضة وثلاثة كؤوس. صب السائل البارد الأصفر الذهبي في الكؤوس وقال:

ـ نخب ماذا سنشرب؟

فأجابت ليليان:

ـ نخب الحب... فبإمكانه إصابتك من حيث لا تدري.

فضحك أرماندو:

ـ بل نخب «الرغبة» التي أقبلها دائماً.

أضافت كلوديا:

ـ ونخب الزواج.

فقال أرماندو:

ـ بالتأكيد سأشرب نخب الزواج يا ملاكي.

التفتت كلوديا إلى ليليان:

ـ نحن الإيطاليون نتحدث بابتذال عن الزواج، ولكننا لا نعنيه دائماً.

فقال أرماندو:

ـ أما أنت فتعنينه يا حبيبتي! وهذا ما يجعلك مميزة. فأنت إذا استثنينا أمي أصدق امرأة أعرفها.

وضعت ليليان كأسها من يدها بقوة كادت تحطمه... لقد اكتفت! قالت:

ـ أظنني سأذهب إلى القرية لأتسوق.

فقال أرماندو:

ـ لا تذهبي من أجلنا... فإن أردنا البقاء وحدنا نخبرك.

ذكّرته كلوديا:

ـ الأفضل أن لا نكون وحدنا يا حبيبي، فأنت تعلم طريقة أمي في مراقبتي

فقالت ليليان بغضب:

ـ لن أتركك من باب الدبلوماسية بل لأنني في مزاج يدفعني إلى بذل المال.

ـ استخدمي سيارتي... آسف... لا أظنك قادرة على قيادة اللامبرغيني.

ردت ليليان بسرعة، كارهة انتظار الباص المحلي:

ـ لقد قدت سيارة مثلها قبل الآن.

ـ والفيل يطير. سيقلك السائق إلى السوق.

ـ ألا تصدقني؟

ـ بلى... فأنت تقودين أيضاً السيارات الأميركية!

أوشكت على أن تقول إنها قادرة على ذلك فعلاً لكنها تمتمت على مضض:

ـ في الواقع أقود دراجة صديقي النارية.

ـ سيقلك إذن السائق قطعاً!

www.elromancia.com

كان الوقت ظهراً عندما وصلت مركز البلدة التجاري. وكان السائق قد استطاع إيقاف السيارة في شارع جانبي يقع في مواجهة فندق أخبرها بأنه من أجود المطاعم في المنطقة. فقالت له:

ـ سأجربه وأخبرك على أن أجد فيه طاولة.

ـ لقد حجز السنيور أرماندو طاولة لك.

كانت المحلات كلها مقفلة عند الظهيرة، ولم تستطع سوى تأمل ما عرضته الواجهات. لكنها اختارت شيئين أرادت شراءهما وهما علبة خشبية تحتوي على «غليون» وأدواته وعلبة أخرى تحتوي على أغراض الخياطة، والأولى لوالدها والثانية لوالدتها.

عندما تملّك منها الجوع أسرعت إلى مطعم الفندق فتناولت فيه السمك النهري الطازج، وسمك السلمون المخفوق بجبن الماعز، وهذه أشهر أكلة في المنطقة.

كانت معرفتها بأن أرماندو وكلوديا وحدهما في القصر هو سبب انزعاجها... فمع أن الفتاة قالت إن أمها تراقبهما لم تستطع إلا أن تتصورهما بين ذراعي بعضهما...

عندما خرجت من الفندق وجدت المحلات مفتوحة، فذهبت لتشتري الهديتين اللتين شاهدتهما. مرت بمحل للجبن يسيل اللعاب، فاندفعت لتشتري سلة من مختلف الأنواع للدونا دوثيللي.

كانت الشمس تلون السماء بلون زهري معتم حين عادت إلى القصر.

عندما ولجت السيارة إلى الممر المغطى بأوراق الشجر، أحست بالأمان يستولي على مشاعرها... مما جعلها أكثر تفاؤلاً بصدد المستقبل.

فما يحس أرماندو به تجاه برتا الجريئة الدافئة، إحساس أقوى منه خاصة بعد هذه الليلة... حيث سيرى في «برتا» امرأة لم يرها قط.

●●●

١١ ـ أنتِ جزء مني

بدت في ثوبها المزدان بالزهور، المنساب على جسدها الغض وكأنها خرجت من لوحة رائعة. أطلت ليليان من حديد تلك الطلّة المذهلة عندما ولجت غرفة الجلوس تلك الأمسيه. كان ذهول أرماندو عند رؤية هذه النسخة الجديدة الناعمة من برتا، ظاهرا على تعابير وجهه. ابتسمت له ابتسامة ساحقة، ثم تقدمت منه تسأله بدلال:

ـ هل اشتقت إلي يا حبيبي؟

ـ في كل لحظة.

أظهر بريق عينيه أنه قد أعاد سيطرته على نفسه، فاستدارت لكلوديا وقالت بلباقة:

ـ هل تمكن أرماندو من إعادتك إلى الماء اليوم؟

ـ بالتأكيد! لقد صنع معجزة صغيرة. أنا قادرة الآن على رمس رأسي دون الخوف من الغرق!

فقالت والدته:

ـ أرماندو قادر على أن يعلم أي إنسان أي شيء يريده... وهذه موهبة يمتلكها.

فقالت كلوديا:

ـ حسناً... إنه مذهل عندما يريد أن يلقّن إنساناً ما درساً.

الضحكة التي أخفتها بسرعة وهي تنظر إليه جعل ليليان تتساءل عن النكتة السرية التي يتشاركانها.

ـ أترغبين في شرب شيء يا برتا؟

وقادها أرماندو بخشونة نحو صينية تحتوي على أصناف العصير الموضوعة على طاولة جانبية... وهمس:

ـ في وجهك شيئاً غير مألوف... لا تكون طفلة فتغاري من كلوديا... أنت تضيعين وقتك، فأنا لم ولن أكون ملكا لك.

تمتمت ليليان قبل أن تتمكن من كبح جماح لسانها:

ـ الحمد لله على هذا... فأنا لا أحب العيش مع شركاء!

تناولت كوب العصير الذي قدمه لها، ثم عادت أدراجها لتجلس على كرسي في مواجهة كلوديا والدونا دوڤيللي... تبدو كلوديا ملائمة له لذا لن تقنع نفسها بأنه قد يتخلى عنها من أجل «برتا» مهما كان انجذابه إليها شديداً.

جلست باعتدال ثم مدت أصابعها نحوه وطقطقتها:

ـ هاي أنت...! لم تعطني كوباً ثانياً بعد.

ـ آسف.

حمل إليها كوباً آخر قدمه إليها لكنه عندما بذّل الكوب رمق كلوديا بنظرة حميمة... وكأنما يطمئنها إلى أن لا شيء يدعو إلى الخشية من هذه الفتاة السخيفة، المارة بشكل مؤقت في حياته. بذلت جهداً لتجاوز ما يجري فشرعت تتحدث عن حياتها الماضية عندما عملت خادمة في منزل. ولوّنت حديثها بطريقة دفعت الدونا مارينو إلى الإصغاء فاغرة الفم... قالت في ختام كلامها:

ـ أتعرفين، هذه ليست بالوظيفة التي أوصي بأن تمتهنها فتاة شابة... فبعض الأزواج يتلمسون طريقهم من خلف ظهور زوجاتهم!

ارتشف أرماندو كوبه بصعوبة، ثم اقترح بصوت مختنق الذهاب لتناول العشاء، مما ذكّر الدونا دوڤيللي بسلة الجبن التي اشترتها لها ليليان.

ـ لقد كانت رائعة يا عزيزتي... شكراً لك كثيراً.

لم يكن في لهجة المرأة شيئاً من التكبر، بل هي متأكدة من أن في عيني هذه المرأة مودة صادقة. إنها امرأة رائعة وحماة مميزة. ستكون سيئة الحظ إن

لم تصبح حماتها!

استحوذ عليها تفكيرها حتى خلال وجبة العشاء، ففقدت شهيتها. لكن عندما لاحظ أرماندو ذلك سألها عن السبب فأجابت:

ـ أشعر بدوار، لعله بسبب تجوالي تحت أشعة شمس الظهيرة. ليتكم تعذرونني... ساوي إلى غرفتي.

فقالت الدونا دوڤيللي:

ـ ستجدين أقراصاً مسكنة في خزانة الحمام. لكن إذا أردت شيئاً أقوى...

ـ لا شكراً... سأكتفي بما أجد.

تجنبت عيني أرماندو وهي تخرج. وقع خطواتها لم يُسمع على سجادة الدرج وكذلك وقع قدمي من تبعها. أجفلت عندما وجدت أرماندو خلفها أمام باب غرفتها. فسألته:

ـ ماذا تريد؟

ـ أن أتحدث إليك.

ـ لقد تحدثنا بما فيه الكفاية.

فتجاهلها ودفع بها إلى الغرفة، وقال بوقاحة:

ـ لقد قلت لأمي إننا فسخنا الخطوبة.

ـ ماذا؟

ـ أليس هذا ما كنت تريدينني أن أفعله؟

ـ أردتك أن تخبرها الحقيقة... الحقيقة المخجلة... هل أخبرتها عن أمر زواجك من كلوديا.

ـ ليس بعد... سيكون للخبر وقع أفضل إن تريثت بضعة أشهر.

جلس على مقعد ذي ذراعين قرب السرير وساقه تلتف على الأخرى:

ـ هذه الخطوبة المزيفة كان لها وقع جيد على كلوديا... فقد وافقت أخيراً على الزواج مني قبل نهاية السنة.

تحققت الآن اسوأ مخاوف ليليان... فازداد ارتجافها... لكنها تمكنت

من القول:

- يبدو أنني أستحق مكافأة على هذا.

- لا شك في ذلك. ولعلها ستكون مكافأة ممتعة.

هب من مكانه ودنا منها حتى ملأت رائحته الخاصة أنفها. تابع وهو يعبث بخصلة من شعرها بأصابعه:

- أنت مميزة بالنسبة لي يا برتا. لقد أثرتني، وأغضبتني ومازحتني، وحوّلت حياتي جحيماً. ومع ذلك بت عاجزاً عن مقاومتك.

همست له، غير واثقة مما تسمع:

- عاجزاً عن...؟

- لا... لا تظهري هذه الدهشة يا حبي... فأنت تعرفين جيداً ما تفعلينه بي... فأنا لم أرد فتاة كما أريدك أنت. ولن أدعك تخرجين من حياتي.

فشهقت:

- ماذا عن كلوديا؟

- زواجي منها لا علاقة له بنا.

- لست... أفهم.

- الأمر بسيط... أنا مهتم بكلوديا، التي ستكون زوجة رائعة لي... لكنك تملكين جزءاً مني لم أعرف أنه موجود حتى التقيتك.

تابعت ليليان تحديقها دهشة... وقد خدرتها الصدمة حتى باتت لا تشعر بالألم... فالألم سيأتي فيما بعد. أما الآن فالمهم ألا تدعه يعرف أن عرضه المهين قد شتت كل أحلامها. همست:

- إذن... أنت تريدنا معاً...؟

فرد بسرعة:

- ليتني قادر على الاحتفاظ بك وحدك... لكن هذا لن ينجح... فالمجتمع الإيطالي أقسى من المجتمع الفرنسي... فيه ستشعرين بأنك سمكة خارج المياه.

- لكن والدتك رحبت بي.

- لأنها إنسانة لطيفة ورائعة... لكن تشعر أيضاً بأن زواجنا سيكون كارثة.

- إذن تريد كلوديا لترضي بها المجتمع، وتريدني لترضي نفسك؟

كانت الإجابة واضحة على وجهه. فأحست بأنها واقعة بين فكي «ملزمة».

- أحبك يا برتا، ولن نحتاج إلى رباط ذهبي لتثبت هذا... دعيني أثبته لك.

جذب جسدها المذهول وأدناه منه فشلّ فيها كل حركة وغدت بين يديه جامدة لا إرادة عندها للحراك. لكنها لمّا أحست بحلاوة أنفاسه الدافئة على بشرتها، وقساوة جسده تثبت حقيقة كلماته. بدا وكأن عظامها قد تفتت من جرّاء عناقه ومع ذلك لم تقدر على الاستجابة له.

رفع رأسه حائراً:

- ما خطبك يا حبيبتي؟

- لطالما عرفت أن لك سمعة نتنة مع النساء... لكنني ما ظننتك حقيراً إلى هذه الدرجة... آه... أنت أكثر الأشخاص نذالة.

بدا عليه الذهول:

- أنت لا تعنين ما تقولين يا برتا... فقد كنت شريفاً معك.

- ومع كلوديا كذلك؟

- ليس بعد. لكنها ستعلم بعلاقتنا في النهاية، وستتقبل الوضع.

- كيف تثق بنفسك كل هذه الثقة؟

- لأنها ذكية وعملية! فهي لا تريد زواجاً اجتماعياً مقبولاً وحسب، بل وعملاً ناجحاً كذلك... لذلك سيناسبها زوج غير متطلب... لذلك لا تقلقي يا حبي... سينجح كل شيء.

- بالنسبة لك ربما... لكنني وكلوديا سنخدع...

- أعدك أنه لن ينقصك شيء... سأعطيك شقة، وثياب ومال...

صاحت به:

- لا... لا!

www.elromancia.com

أرادت الخروج من هذا الوضع المحط لكرامتها. شهقت وقد عنّت لها فكرة بدت معقولة.

ـ لا فائدة... لن أستطيع إخفاء الأمر بعد.

ـ ماذا تخفي؟

ـ الحقيقة... أنا لا أنكر أنك رجل جذاب... ولكن... حسناً، فلأكن صادقة... لقد طلبني فيتوريو للزواج... وسأقبل عرضه.

علمت ليليان، من تدفق الدم إلى وجهه، أنه أصيب بصدمة. لكنها صدمة لكبريائه... فهو غير قادر على الحب. سألته بمرح أجبرت نفسها على التظاهر به.

ـ هل أكلت القطة لسانك؟ أم كنت تعتبر أنك الرجل الوحيد الذي قد أفكر فيه.

ـ لكنني لم أفكر في أنك وفيتوريو. لم أحسبه يوماً جاداً في علاقته معك.

ـ هذا يظهر مدى خطأك... وربما لست زوجة تصلح لك. لكن فيتوريو يراني عكس ذلك.

سألها بحدة:

ـ لكنك لم توافقي بعد؟ قلت إنك ستوافقين.

يا لشدة ملاحظته! قالت بحذر:

ـ ثمة معلومات محددة عني أريده أن يعرفها أولاً... فلم أشأ إعلامه بها قبل مغادرتي القصر.

ـ أية معلومات؟

ـ إنها تهم فقط الرجل الذي سأتزوجه.

ـ تقصدين فيتوريو؟ إنها محاولة جيدة يا برتا، ولكن بطريقة ما لا أستطيع التصديق. أظنك تقولين هذا لأنك تشعرين بأنني أهنتك.

ـ لن أدعي بأن عرضك أسعدني... لكنني أؤكد لك... إن لا علاقة لما قلته بمشاعري تجاه فيتوريو.

خرجت الكلمات منه مبعثرة وكأنه يجد صعوبة في النطق:

ـ أنت... تحبينه... حقاً؟

ـ أجل.

الاحمرار الذي علا وجهه، تلاشى بسرعة ليحل محله اللون الرمادي.

ـ كان من حسن حظك المجيء إلى إيطاليا. فلولا تمثيليتنا الهزلية هذه لما التقيتيه.

ـ أعرف... سأكون ممتنة لك إلى الأبد، لذا سأتخلى عن المال الذي وافقت على دفعه لي.

ـ اعتبريه هدية زواج.

ـ لن أحتاج إليه.

ـ لا... لا أعتقد هذا.

منع الغضب والاشمئزاز دموعها من التدفق، لكن المرارة حبست صوتها بعض الشيء.

ـ من الخير لنا أن أترك القصر في الصباح يا أرماندو.

ـ حسناً.

تردد وكأنه يريد إضافة شيء، لكن شفتيه بقيتا مضمومتين وهو يخرج مغلقاً الباب بهدوء خلفه، وكأنه يغلقه في وجه أحلامها.

تذكرت فجأة... فيتوريو... يجب أن تتصل به قبل أن يتصل به أرماندو، وإلا اعترف له بأنها رفضت طلبه...

خلال دقائق سمعت صوته على الطرف الآخر:

ـ أنا برتا... كنت، أريد أن تعرف، أنني سأترك القصر في الغد... وإن أردت أتوقف في روما لرؤيتك.

ـ إن أردت؟ وماذا أريد غير هذا؟ ولكن ماذا جرى بينك وبين أرماندو؟

ـ لقد انتهى عملي عنده. وسأخبرك لاحقاً عمّا حدث.

ـ متى ستصلين؟

ـ لا أعلم. سأتصل بك عندما أصل.

ـ ستسكنين معي بالطبع!

www.elromancia.com

ـ لا... شكراً سأحجز في الفندق.
ـ لا داعي إلى ذلك ثقي بي يا برتا... وأنا أعني قولي.
ـ أحقاً؟
فضحك:
ـ أيتها الناقدة الصغيرة! دعيني على الأقل أقابلك في محطة القطار... اللعنة... لن أستطيع. أنا مرتبط باجتماع طوال النهار ولن أتحرر منه قبل السادسة.
ـ إذن سأزورك في شقتك... انتظرني حوالي السابعة...
وقبل أن يتمكن من مجادلتها أعادت السماعة إلى مكانها.
عندما أقفلت الخط ندمت على استخدام فيتوريو غطاء لها وعلمت أنه كان الأسهل لو أخبرت أرماندو عن حبيب ما في فرنسا.
فات الأوان الآن. وها هي تشرع في تمثيلية هزلية أخرى عليها الاستمرار فيها حتى النهاية!

●●●

١٢ ـ فات أوان النّدم

أرسلت ليلة الأرق هذه ليليان إلى غرفة الطعام باكراً في الصباح التالي. لكنها دهشت عندما رأت الدونا دوفيللي فيها. ليتها تستطيع الهرب من هذه الغرفة. حيّت الدونا ثم جلست إلى المائدة.
طرقت الدونا دوفيللي الموضوع مباشرة:
ـ أعلمت بأنك ستتركينا.
ـ أجل.
ـ يجب أن أعبر عن دهشتي... لقد ظننتك مهتمة بولدي. لكنني أجدك الآن وفيتوريو...
إذن لقد وضع أرماندو اللوم عليها... لا شك في أنه سارع إلى أمه ليبيض صفحة وجهه!
ـ نحن... لم نرد أن يحدث هذا... لكنه حدث!
لاحظت الدونا حيرة ليليان فقالت:
ـ هل حدث حقاً؟ حسبتك تنتقمين من أرماندو بسبب اهتمامه الشديد بكلوديا.
ـ ليس لتصرفات أرماندو علاقة بحبي لفيتوريو.
ازدادت غضباً لأنه لم يخبر أمه الحقيقة الكاملة:
ـ لا أعتقدك تعارضين ذهابي... فقد كنت وولدك قطبين متنافرين.
ازدردت قهوتها ثم هبّت واقفة.
ـ هل لديكم كتيب عن مواعيد القطارات، أريد التوجه إلى روما في أسرع

www.elromancia.com

وقت ممكن.

ـ سيوصلك السائق.

ـ لا أريد ذلك.

ـ لكن أرماندو مُصرّ. طلب مني الاعتذار عن غيابه، لكنه استُدعي على عجل إلى إحدى المعاصر.

فهزت ليليان كتفيها:

ـ الأمر ليس مهماً. فلم يعد بيننا ما يقال. لكن أرجوك ودعي كلوديا نيابة عني.

ـ بالطبع... لقد تأخرت عنها ثواني معدودة، فقد خرجت للانضمام إلى أرماندو.

عبأت بغضب حقائبها... وما إن حاولت إقفال الأولى حتى توقفت. لماذا تحمل هذه الثياب كلها؟ إنها لا تريد ما يذكرها به. رمت كل ما تحويه الحقائب فوق السرير، والتقطت حقيبتها اليدوية وخرجت.

بعد أربع ساعات، دخل السائق الذي يقود اللمبرغيني شوارع روما المزدحمة، قال السائق:

ـ إلى أين تريدين الذهاب آنستي؟

أعطته عنوان فندق صغير فخم اعتادت ووالدها النزول فيه دوماً. ما إن دخلت باحة الفندق فاستقبلتها السيدة سانتيني، صاحبة الفندق، حتى عادت إلى استرداد شخصيتها الحقيقية... فشعرت بشيء من الارتياح لم يخفف من عذاب قلبها لكنه ساعدها على القبول به.

تبادلت القبلات مع السيدة سانتيني، التي رافقت ليليان بنفسها إلى الطابق الثاني حيث يقبع جناح مفروش بأناقة. سألتها السيدة سانتيني:

ـ هل أرسلت حقائبك؟

فهزت رأسها وهي تكره أن تقول لها إنها لا تملك حقائب في الوقت الحاضر. انسلت المرأة بعد قليل... ففكرت حينها ليليان بالاتصال بأمها لتخبرها بأنها تركت القصر. لكنها لم تكن في مزاج يسمح لها بأن تسمع كلمة

«حذرتك!» فقررت الخروج لتشتري بعض الثياب ولتفعل شيئاً لشعرها البرتقالي!

أحست بالعظمة عندما عادت إلى طبيعتها ثانية، عادت إلى الفندق مرتفعة المعنويات تريد أن تبدّل ثيابها قبل أن تقابل فيتوريو.

كان فيتوريو يقطن في الطابق العلوي من مبنى عمره يزيد على قرن وهذا المبنى على إحدى تلال روما. ما إن خرجت من المصعد القديم، حتى وجدته بانتظارها في ردهة المدخل.

قال لها فيتوريو بعد أن جلسا في غرفة الجلوس العصرية الأثاث، كسائر أرجاء المنزل.

ـ مسرور أنا لوجودك في شقتي. لقد خذلتني بكل صراحة تلك الليلة... حتى فقدت الأمل برؤيتك ثانية.

ـ لم أستطع المجيء إلى روما دون رؤيتك.

التهمتها عيناه اللتان جابتا وجهها نزولاً إلى جسدها الطويل الرائع التقسيم وإلى ساقيها النحيلتين. وكانت أشعة الشمس التي توشك على الغروب قد أعطت شعرها لوناً أحمر يميل إلى البني. تصاعدت نظرة حيرى في عينيه... فحاول أن يتكلم ثم عاد ليلوذ بالصمت وسألها:

ـ ما رأيك ببعض القهوة؟

ـ دون سكر لو سمحت.

عاد بعد لحظات من المطبخ يحمل صينية القهوة... فتنفست ليليان الصعداء، ورفعت الفنجان إلى أنفها:

ـ رائحة زكية... كيف لبعض الناس استخدام الملعقة.

ـ ملعقة؟

ـ أجل لتحريك السكر، فالسكر يذهب برائحة القهوة الفاخرة ألا تظن هذا؟

ـ آه... أجل... تماماً.

ـ القهوة المرة هي المنعشة... لكنني أعتقد أنك تعرف هذا.

ـ أجل... بالطبع... لكنني ما ظننتك تعرفينه.

فأخفت ابتسامتها، ثم لفت ساقاً فوق الأخرى بطريقة أنيقة، وراحت تسلي

نفسها برؤية الدهشة تزداد بروزاً في وجهه.

- لماذا تركت القصر؟

- بسبب كلوديا.

- كلوديا مارينو؟ لست أفهم.

- إنها تقيم ووالدتها هناك لبعضة أيام، وهذا ما أوصل الأمور إلى ذروتها فهي خطيبة أرماندو سراً منذ أشهر.

- لا بد أنك تمزحين!

- لست أمزح.

قال فيتوريو بذهول:

- لم يذكر الخطوبة قط! الشيطان اللعين!

- وأمه لا تعرف أيضاً. لكنني فهمت أنهما سيتزوجان قبل نهاية السنة.

لم تزُل الحيرة عن وجه فيتوريو:

- لا شك في أنه يحسن تخبئة أوراقه. كل ذلك الكلام عن عدم رغبته في الزواج قبل سنوات، بينما هو طوال الوقت... انتظري حتى أراه!

صمتت ليليان. ولم تدهش عندما وضع فنجانه من يده وتقدم ليقف أمامها:

- ماذا حدث لك يا برتا؟ لم يتغير شكلك فقط بل لهجتك كذلك؟

ردّت رأسها إلى الوراء لتنظر إليه:

- حقاً؟ وهل أعجبتك برتا الجديدة؟

- بالطبع... ولكن القديمة أفضل لأنها هي من طلبت يدها... إذا كنت تذكرين؟

فردت بصوت أجش، والألم الذي سببه لها أرماندو ما زال يؤلمها:

- كيف لي أن أنسى؟

رفعت يديها إليه، فأمسكهما ثم جلس قربها، ليدرسها بدقة:

- هذا الثوب مميز أكثر من تلك الأثواب وتبرجك مختلف... وليس ذلك فحسب بل ثمة شيء... آه... لقد عرفته! إنه لون شعرك! هل غيرته؟

- من الجزري الربيعي إلى الخوخي الخريفي.

فضحك:

- ولكن روحك لم تتغير، برتا حبيبتي.

- اسمي ليليان. ليليان دي روشفور.

أمسكت بذلك الثور من قرنيه... فقال فيتوريو بصوت مضطرب:

- هل قلت دي روشفور؟

- هذا صحيح! ليليان دي روشفور، من عائلة روشفور.

وقفزت واقفة لتقف قرب النافذة، وهي تحس بأنها بذلك تقدر على الشرح بشكل أفضل.

قال فيتوريو بذهول:

- يبدو أنه يوم المفاجآت! أعتقد أن هناك سبباً وراء هذا التنكر؟

قالت معترفة:

- بدأت القصة مزحة.

روت القصة كاملة منذ بدايتها حتى نهايتها غافلة عن ذكر حبها لأرماندو.

ضحك فيتوريو بعد أن أنهت قصتها:

- ما هذه النكتة اللامعة! لقد نفذتها بشكل رائع... أتدرين! مرت بي أوقات ظننت فيها أن لك شخصيتين منفصلتين! عدة اشياء حولك كانت غريبة... لكن أن تكوني ليليان دي روشفور... وأرماندو ألا يعلم؟

- ليس بعد.

- لا أعتقد أن رجلاً قد يسبر أغوارك أبداً!

تقدم فيتوريو منها وتابع:

- لقد فهمت لماذا صددتني تلك الليلة... فأنت كنت تخدعين أرماندو طوال الوقت، وأنا كنت هناك... يا إلهي! لا شك في أنك ضحكت علينا كثيراً.

ظهر في صوته آثار الجرح الذي سببته له، فأحست عندها بأنها كانت مخطئة لأنها استخدمته ذريعة ضد أرماندو. لامبرر قد يبرر لها جرح هذا الرجل

الساحر اللطيف.

- فيتوريو أنا...

ردعها عن إتمام كلامها رنين الجرس المتكرر الذي تبعه صوت رنان في الردهة، صوت أرسل رعشات إلى جسدها... ماذا يفعل أرماندو هنا؟ قاومت لتسيطر على أعصابها، وهي تراقبه يدخل... نافذ الصبر تنبعث منه شحنة مكهربة... بدأ يقول:

- آسف لأنني فرضت نفسي عليك يا فيتوريو.

توقف عن الكلام فجأة عندما شاهد ليليان عند النافذة... فصاح بصوت غاضب جاف:

- أنت هنا إذن؟

- وأين كنت تتوقعني؟

فضحك فيتوريو:

- لقد خدعتك أيها الغبي.

- الغبي؟

- دون شك!... ألا ترى برتا الآن مختلفة؟

- مختلفة عن ماذا؟

- عن تلك النسخة المسخ التي لوحت لك من نافذة قصر دي روشفور؟

تحوّلت ابتسامة فيتوريو إلى قهقهة عالية عندما شاهد ضيق عيني أرماندو:

- أتعني ليليان و... و...

- وبرتا شخص واحد!

ولوح بيده نحوها.

- أريدك أن تقابل برتا مونسون... المعروفة باسم ليليان دي روشفور.

- وقريباً ستكون ليليان كوستا.

عندما شاهدت وجه فيتوريو حين نطقت بتلك الكلمات، لعنت نفسها، لأنها سمحت لرغبتها في إغضاب أرماندو بزجها في وضع قد تجرح فيه مشاعر

فيتوريو! لكن فات أوان الندم، فتقدمت إليه لتشبك ذراعها بذراعه.

فقال مقطوع النفس:

- عزيزتي...

وضعت بسرعة أصابعها على فمه، ثم نظرت إلى أرماندو لتجده يراقبهما بتعبير قاس... قال أرماندو لفيتوريو:

- ما من شك في أنك ربحت الجائزة الكبرى يا فيتوريو. لقد تقدمت بطلب يد الخادمة وانتهى بك المطاف إلى كسب يد السيدة!

فقالت له ليليان:

- لعلك لم تغضب بسبب تنكري ذاك؟ لكنك وقعت في يدي دون جهد ذلك اليوم في الغابة.

- لقد فهمت هذا الآن.

- هل تسامحني؟

- بالطبع.

أضاف فيتوريو:

- الجيد هو ما تكون نهايته جيدة... والآن أقترح بأن نشرب نخب خطوبتي لليليان.

فقالت ليليان لأرماندو:

- وخطوبتك كذلك. لقد أخبرت فيتوريو عنها إن لم يزعجك ذلك؟

- إطلاقاً. خطوبتنا لم تعد سراً... فقد أخبرنا والدتينا عند الغداء، وأصبح الأمر رسمياً!

- أرافقتك كلوديا إلى روما؟

دهشت ليليان لأنها تمكنت من التفوه بهذه الكلمات وفي قلبها تلك المرارة.

- أجل... يبدو أن أعقل الإناث يصبن بالجنون من أجل شراء الملابس فهي لم تقبل بالمجيء قبل أن تعلم متى تنهي دار الأزياء ثوب الزفاف!

فاقترح فيتوريو:

ـ لماذا لا نخرج جميعاً الليلة لنحتفل؟
ـ سأتعشى وكلوديا عند عمتها وزوجها.
فضحك فيتوريو:
ـ هكذا هي العائلات! لا أستطيع الانتظار حتى تقابلك عائلتي... التي هي في إسبانيا وستبقى هناك ثلاثة أشهر أخرى ولكن هذا لن يمنعني من مقابلة عائلتك ثانية... أعتقد أن والدك سيرغب في حديث صغير معي.
فابتسمت:
ـ لا تقلق... اصدقاء أرماندو مقبولون عند والدي.
فقال فيتوريو ممازحاً:
ـ أسمعت هذا؟ لقد استفدت من معرفتي بك!
قاطعه قائلاً:
ـ لولاي لما عرفت ليليان.
جذب فيتوريو يد ليليان إلى شفتيه.
ـ لذا أنا مدين لك.
فقال أرماندو فجأة:
ـ سأترككما معاً يا عصفوري الحب.
سمعت فيتوريو يسأله وهما عند الباب:
ـ ثمة سبب خاص لزيارتك إياي؟
ـ لقد طلبت مني عنوان خياط القمصان، أتذكر؟ كنت سأتصل بك هاتفياً لكنني عدت فقررت زيارتك لأخبرك عن خطوبتي لكلوديا.
ـ سرني هذا الخبر... إنه شيء رائع... هـه؟ الأعزبان المتمرسان علقا أخيراً في الفخ في آن معاً.
تقدمت ليليان نحو الردهة وقالت:
ـ ولكن أحدهما عالق أكثر من الآخر.
لا حظت من اشتداد تصلب فك أرماندو أنها أصابت الهدف... فما قيمة حبه لكلوديا وهو لم يمنعه عن طلب فتاة أخرى لتشاركه حياته؟

سأله فيتوريو وهو يخرج دفتر ملاحظات من جيبه، ويبحث في الأخرى:
ـ ما هو عنوان خياط قمصانك؟... اللعنة! لقد نسيت أين وضعت قلمي!
سحب أرماندو قلماً ذهبياً رفيعاً من جيبه:
ـ أهذا هو؟
ـ كيف وصل إليك؟
ـ وجدته في غرفة برتا... أعني ليليان.
احمرّ وجه ليليان.
ـ لعله وقع مني ليلة بحت لها بطلبي! والآن ما هو العنوان؟
أعطاه بصوت جاف العنوان، وفتح الباب، فقالت:
ـ اذكرني عند كلوديا.
ـ سيكون لك ذلك.
رفع يده بتحية جافة... ثم خرج.
جذبها فيتوريو إليه فوراً.
ـ لا أصدق أنك وافقت على الزواج مني يا حبيبتي! ما الذي بدّل رأيك؟
ـ هذا من شمائل النساء. لكن امرأة متحررة قد لا تروقك كثيراً.
ـ كل ما فيك يروقني.
ـ لا تكن واثقاً إلى هذا الحد... فلدي آراء قوية وجريئة، ولن أسمح لرجل بأن يأمرني.
فابتسم:
ـ هذا ما نفضله في هذه الأيام.
ـ ولكن أرماندو لا يقبله.
ـ اوه... بل يقبله... أنت لا تعرفينه كما أعرفه أنا. أعترف بأنه سبب لك أوقاتاً عصيبة... لكنك السبب! عندما أفكر فيما قمت به من أعمال شنيعة! أظنك كنت تسهرين الليالي وأنت تفكرين في الطريقة المثلى لإزعاجه.
ضحك... فقالت نافذة الصبر:
ـ هل لنا أن ننتهي من هذا الحديث؟

ـ طبعاً يا حبيبتي... فالحب يتغلب على مشاكلنا كلها.

لكن المشكلة الأهم الآن أنها لا تحبه وقد اقتنعت بهذا أكثر عندما تسللت يداه من ظهرها إلى خصرها، ثم ضغطها إليه... جعلها عناقه تشعر برغبة مجنونة في الفكاك من ذراعيه هرباً منه.

رفع رأسه عنها، وعيناه العسليتان تتساءلان:

ـ تتحدثين عن الحب ليليان... لكنك لا تتصرفين كما تفعل الحبيبة.

فهمست:

ـ أنا آسفة... أخالني بحاجة إلى بعض الوقت لألملم شتات أفكاري فقد مضى وقت منذ أن كنت ليليان دي روشفور.

رفع لها رأسها:

ـ حبيبتي المسكينة. أنت بحاجة إلى العودة إلى ديارك، كما أعتقد، لتعيدي جذورك إلى أرضها.

كان تعليقاً ذكياً زادها احتراماً له. تنهدت وهي تتمنى لو يغدو هذا الاحترام حباً.

أدركت بأنها إن غادرت روما بسرعة ستثير ريبة أرماندو، لذا لم تجد بدّاً من البقاء حتى نهاية الأسبوع كما اقترح فيتوريو. عندما رأت السرور على وجهه، صممت على أن تنهي هذه الخطوبة بأسرع وقت قد تجرؤ عليه... وتمتمت:

ـ أنت لطيف جداً معي.

ـ أيتها الحمقاء الصغيرة... ألا تعرفين أن من السهل أن يكون المرء لطيفاً مع من يحب؟

هزت رأسها، وهي تعرف أنه كان من الأسهل لها لو كانت لطيفة مع أرماندو... لكنه كان لكلوديا... ولأية امرأة تلتقطها عيناه.

●●●

١٣ ـ ما أعظم يد القدر!

أسندت ليليان رأسها إلى ظهر مقعد الطائرة التي تشق أجواء الفضاء باتجاه باريس. لمّا وضعت نظارتها الشمسية التفت الرجل الجالس قربها إليها تعجباً:

ـ لا أشعة شمس تتسلل يا سيدتي.

ابتسمت له ثم أدارت وجهها، فما قاله صحيح، إنما لعل هذه النظارة القاتمة اللون تخفي دموعها المنهمرة... فقد بذلت جهدها لتخفيها عن فيتوريو عندما أحست بأنه تكدر جداً عندما غيرت رأيها رافضة البقاء معه حتى نهاية الأسبوع.

أحست أنها مخادعة جبانة وهي تقبله قبلة الوداع، ولم تكن قد استعادت وعيها إلا بعد أن أقلعت الطائرة.

غادرت مطار شارل ديغول بعد ساعة مستقلة سيارة أجرة... سارت بها السيارة وهي تشعر أنها تبدلت كثيراً فلم تعد تلك الفتاة الهانئة الخالية من الهموم. بل هي الان مع كل كيلومتر يقربها من منزل عائلتها تزداد خوفا لأنها تعلم أن بؤسها سيزداد عندما يعرف والدها بأن علاقتها مع أرماندو باءت بالفشل.

قال لها والدها مرحباً:

ـ تسرني عودتك إلينا يا حبيبتي... اشكري ربك لأنني لم أعرف شيئاً عن الخدعة التي نويت خوض غمارها، لأنني كنت سأمنعك... لا شك في أنه استشاط غضباً عندما عرف الحقيقة... هـه؟

هزت ليليان رأسها نفياً، وعانقت والدها... تمتمت أمها:

- يؤسفنا أن علاقتكما باءت بالفشل.
- لا أمل فيها. فهو كان مرتبطاً بكلوديا مارينو... التي تملك عائلتها الأراضي الملاصقة لقصره... وهي فتاة حلوة.
- هل قابلتها؟
- أجل... لقد أمضت وأمها نهاية الأسبوع الفائت معنا... أعلم أن أملك خاب... لكن كما قلت... باءت علاقتنا بالفشل.
فردت الأم:
- فليكن هذا إذن. فسعادتك هي الأهم لنا. اجلسي الآن واخبرينا القصة كاملة... فأنا أعرفك، لا شك في أنك زلزلت الأرض تحت قدميه فوقع شر وقعة!

ضحكت ليليان وهي تأمل في ألا تظهر أن ضحكتها زائفة. انطلقت تروي بعض ما حصل حتى أن أمها اعترضت على ما حدث... وبدا على أمها الأسف.
- وهل دعوتيه إلى أن يشتري أكبر زجاجة عطر... ليليان كيف تمكنت من ذلك؟
أفسدت مظهرها الآسف بانفجارها بالضحك.
- بكل سهولة. فلو أن كل صرخة، أو أمر وجهه لي يساوي نقطة عطر لانتهى بي الأمر إلى طلب برميل! لا يمكنك تصور كم كان بغيضاً...
توقفت عن الكلام عند دخول مدبرة المنزل، تحمل باقة ورود مديدة الجذور.
- هذه لك آنسة ليليان... لقد وصلت لتوها.
أمسكت البطاقة المرفقة بيدين مرتجفتين... فسألتها أمها:
- من أرماندو؟
- بل من صديقه فيتوريو... أنا... نحن... كنا نلتقي كثيراً هناك.
- إن حجم الباقة يدل على رغبته الأكيدة في رؤيتك!
- لقد دعوته إلى زيارتنا نهاية الأسبوع القادم.

- حسناً فعلت... لكنني لا أذكره جيداً. لا أظنه مديد القامة كأرماندو.
- إنه عملاق يتجاوز طوله المئة والخمسة والثمانين سنتمتراً.
لاحظت أن والدها يبتسم فسألها:
- هل يريد شيئاً؟
- نعم يريد الزواج مني.
ساد صمت متوتر... تبعه سؤال والدها:
- وما هو شعورك؟
ترددت ليليان. لم تكن تشعر برغبة في الإفضاء بمشاعرها الحقيقية لأي إنسان بعد... شاءت أم أبت، إنها مضطرة لاستخدام فيتوريو لحماية نفسها:
- لقد... أنا... قلت نعم.
قالت أمها:
- بهذه السرعة؟ لم تتسرعي يا ابنتي في الإجابة؟
- أعتقد هذا... أنا... نحن... لم نحدد موعد الزفاف بعد.
فقال والدها قبل أن يخرج:
- هذا قرار حكيم.
تابعت أمها:
- لا شك في أن أرماندو ذهل عندما انقلبت الأحداث. لعله اعتبر نفسه وسيط زواج.
- أظنه دُهش.
- كما دهشنا نحن... لكن ما دمت سعيدة...
- أنا سعيدة يا أمي.
- لا يبدو عليك هذا.
- كل ما في الأمر أنني تعبة... دعك من الأسئلة.
تناولت جانيت قماش الحرير الذي تطرزه، وحاكت قطبة بكل عناية ثم تمتمت:
- خطآن لا يعادلان صحاً واحداً. وأنت تعرفين هذا.

- ماذا تقصدين؟

- أعني أن الانتقال من وضع خاطىء إلى آخر ليس الحل الأمثل.

فقالت ليليان بمزاح ساخر:

- ألم تفكري يوماً في دراسة علم النفس؟

- الأمهات يدرسنه تلقائياً... تذكري، أنا موجودة عندما تودين الحديث معي.

- لكننا نتحدث الآن... بحق الله!

- هذا حديث عابر يا عزيزتي... عندما ترغبين في حديث جاد. سأكون لك آذاناً صاغية!

غطت الدموع الرؤية أمام عيني ليليان... فتماسكت قائلة:

- شكراً يا أمي... سأذكر ذلك... علي الآن أن أراجع بريدي.

- لقد اتصلت مديرة مجلة «الفتاة العصرية» تقول إن لديها عملاً لك.

- عظيم فلقد اشتقت للكتابة أكثر من المحاماة.

لكن ما إن أصبحت في غرفتها حتى فقدت اهتمامها بالاتصال بالمجلة، أو بفض الرسائل. فجلست على مقعد النافذة تحدق إلى حديقة الورود، ليتها تعود من جديد تلك الفتاة الهانئة البال التي أطلت بتنكرها الرهيب في بداية مزحة انقلبت عليها.

قفز كلب بني أحمر عبر المرجة يتبعه والدها وهو يسير الهوينا. أعاد منظره إليها ذكرى استيلاء أرماندو وزوجته على قصرها. ثم تصورت والألم يعصر قلبها أطفالاً صغاراً ذوي شعر أسود وعيون زرقاء... أطفال تدفع عشر سنوات من عمرها مقابل أن تكون أمهم. لكن هذا لن يحصل... وعليها أن تخطط لمستقبل مختلف.

دخلت مكتب صديقتها، مديرة مجلة الفتاة العصرية في الطابق العلوي لبناية تطل على ساحة الشانزليزيه... قالت لها دون مقدمات:

- ماذا وراءك هذه المرة؟

- جولة في كندا... أرغب في سلسلة مقالات قوية عن طريقة حياة المرأة هناك. مع التركيز على المجتمع القديم بدل المجتمع الراقي.

- وهل أصبحت جادة في أواخر عمرك؟... قد تتسببين بطردي من مهنة المحاماة.

- لا تهتمي... لقد اصطدمت مع رئيس التحرير في الأسبوع الماضي وقلت له إنني سأستقيل إذا نشر بعد الآن مقالات عن مغني «البوب» وعشيقاتهم... أو عن العطور والصابون والثياب لدى مضيفات الأوبرا. وأنا بحاجة إلى شخص بعيد عن الصحافة يكتب لي المقالات بتجرد...

- عظيم... سأتمتع بالإمساك بخناق ما له قيمة كنوع من التغيير بدل المحاكم والمرافعات.

- ألا تعنين خناق شخص ما؟

- لا تكوني مزعجة!

- لست مزعجة يا ملاكي... بل مهتمة بجنون. تختفين أسابيع ثم تظهرين فجأة، أنحف عوداً وكأن شبحاً يطاردك... وهذا يعني أنه شبح رجل!

- وسيبقى شبحاً بالنسبة لي.

فضحكت هنرييت:

- حسناً... فلنلتزم بشؤون العمل... خذي إجازة أخرى من مكتب المحاماة، وسأحضر لك خطوط رحلتك وأتصل بك، ولكن كوني مستعدة خلال أسبوعين.

ليتها تسافر حالاً أو في أقرب وقت ممكن. لكن كان لوجود فيتوريو في نهاية الأسبوع التأثير العكسي، فلا بلسم يشفي جروح المرأة خير من رجل وسيم ذكي مسلٍ يرافقها.

سألها ظهر الأحد وهما ينتظران وصول السيارة التي ستقله إلى المطار.

- ألم تصلي إلى قرار بشأن علاقتنا؟

- قرار عن ماذا؟

- عن زواجنا.

خفق قلبها ألماً:

- إننا حديثا العهد بالخطوبة فلا تستعجلني.

فتنهد:

- إن شعوري مختلف كل الاختلاف عن شعورك فأنا أريد الزواج اليوم قبل الغد. لقد أسرتني منذ دخلت المطعم تلك الليلة في روما.

- منذ ذلك الوقت؟

- إنه حب من النظرة الأولى... عندما رأيت تلك الطريقة الجريئة التي وقفت فيها في وجهه، كدت أصيح تشجيعاً.

فضحكت:

- أظنني كنت ممثلة ممتازة أكثر مما ظننت.

- هل كان كل ذلك تمثيلاً؟

جعلتها نبرته تحذر:

- هذا يتوقف على ما تعنيه بكلمة «كل ذلك»؟

- غيرتك من إيزابيلا، الفتاة التي سكبت القهوة عليها، والطريقة التي عاملت فيها ماريا... بدا أنها أثرت عليك يومها!

- أنا لم أشعر بالغيرة قط من ماريا، لكنها لم تعجبني لذا عاملتها بتلك القسوة... وإن اعتقدت أنني أخفي حباً ما لأرماندو... فانس الأمر!

- وماذا عن مشاعره تجاهك؟ أنا أعرفه جيداً ولا أصدق أنه قد يرى فتاة جميلة دون أن يطارحها الغرام!

- هل نسيت كلوديا؟ أنا ما كنت بالنسبة إليه أكثر من شخص سيرث يوماً قصرها. لكن لماذا نضيع كلامنا سدى؟

- لأنني أريد أن أتأكد من أنه مضيعة للوقت. بعد مغادرتك روما... أخذت اتساءل لماذا غيرت رأيك... لا تذكري تلك الحجة القديمة عن أن تغيير الرأي جزء من طبيعة المرأة.

التفتت إليه ليليان بعنف:

- وهل تبادر إلى ذهنك كل هذا لأنني لم أحدد موعد الزفاف!

- أنا لست مصراً على هذا... لكنني لا أريد أن أبقى عالقاً بين السماء والأرض.

ها هي فرصتها للخلاص قد أزفت. وكادت تفعل لولا وصول مدبرة المنزل التي أعلنت عن وصول سيارة الأجرة وصممت ليليان أن تقول له كل شيء في الأسبوع القادم.

خرج الأمر من يدها عندما اتصل فيتوريو في اليوم التالي معلناً أنه مضطر للسفر إلى أميركا في الصباح حيث سيغيب ستة أسابيع على الأقل. فشريكهم أصيب بنوبة قلبية. وسيستلم عمله إلى أن يجدوا البديل... أضاف:

- أظنك لن تتمكني من مرافقتي؟

- قد تقطع هنريت رقبتي!

- أشعر برغبة في قطع عنقها!

عجزت عن فسخ الخطوبة لكن عليها أن تعمل جاهدة لتنال فرصة أخرى... تابع كلامه:

- سأشتاق إليك كثيراً.

- لن تشتاق إلي بعد أن تغرق في العمل.

- لن أكون مشغولاً إلى حدٍّ يحول بيني وبين التفكير فيك.

- ربما ستجد فتاة أخرى فالأميركيات رائعات الجمال.

- أعلم... شقراوات وجميلات ومشرقات. لكن بوادر الغيرة لا تظهر عليك إطلاقاً بينما أنا أتلظى بنيرانها وأنا أفكر في الشباب الكنديين الذين ستقابلينهم!... آسف يا حبيبتي ولكن علي إقفال الخط الآن... حافظي على نفسك يا حبيبتي... سأتصل بك.

قالت لها أمها:

- ابتعاده ليس بالأمر السيء... لأنه بذلك تتاح لكما فرصة التفكير في المستقبل.

- هل تشكين فيه؟

- لعله ليس الرجل المناسب لك. لأنني مقتنعة بأنك لا تحبينه يا عزيزتي،

لن تخدعيني مهما فعلت.

اضطرت ليليان للاعتراف:

ـ أنت على حق يا أمي. أنا لا أحبه. وسأبوح له بذلك.

ـ كلما أسرعت في إخباره كان ذلك خيراً لك. فلن تستطيعي نسيان رجل بادعاء حب آخر.

ـ نسيان رجل؟

ـ أرماندو... إنه سيتزوج من كلوديا، وعليك القبول بهذا الواقع... لم يكن عليك الاختباء وراء فيتوريو.

ـ هل كنت بهذه الشفافية؟

ـ بالنسبة لي فقط.

ـ هل يعلم والدي؟

ـ لا تكوني سخيفة!

تبادلتا النظرات ثم ابتسمتا، فتلاشى كل التوتر.

وعملاً بنصيحة أمها، جلست تلك الليلة تكتب رسالة إلى فيتوريو... كانت أصعب ما كتبت منذ أن حملت القلم. فبعد محاولات خمس توقفت عن الكتابة وقررت السفر إلى روما لرؤيته. لكن علمها بأنه مشغول بالتحضير لرحلته، جعلها تحجم. كانت قد وصلت إلى منتصف الرسالة عندما أدركت بأن عليها أن تتكلم معه.

مع أن الوقت كان قد تجاوز منتصف الليل، فقد اتصلت به، وقلبها يخفق... فلما وصل صوته إلى مسمعها. لم تمهل نفسها إطلاقاً لئلا تعدل عن البوح بما تريده. تدفقت الكلمات منها بسرعة ولمّا أوشكت على الانتهاء حاولت الاعتذار.

ـ فيتوريو... أنا...

ـ لا يا ليليان، لا تقدمي وعود كاذبة... فنحن راشدان على وعود كهذه.

ولم تستطع اخفاء التشنج من صوتها:

ـ أنت محق... أنا حقاً آسفة... أنا... لا أعتقد أننا قد نحافظ على

صداقتنا... أيمكن هذا؟

ـ بالطبع سنحافظ عليها. فأنت ستبقين بالنسبة لي دائماً وأبداً مميزة يا حبيبتي!

ـ أوه يا فيتوريو... أشعر بالخزي...

فضحك:

ـ دعك من ذلك. فلن ألتحق بالدير بسبب فراقنا! أتذكرين ما قلت عن شقراوات أميركا؟ حسناً... أنا حر الآن في وضعهن على لائحة أهدافي!

فردت له الضحكة وإن بارتجاف متسائلة عما إذا كان سيسيء الظن بها فيما لو طلبت منه عدم إبلاغ أرماندو عن فسخ خطوبتها... ولكن ماذا يهم إن عرف أم لم يعرف؟ سمعت فيتوريو يقول:

ـ سأتصل بك عندما أعود من أميركا. فأنا لن أشطب اسمك من لائحة كتابي الأسود!

قهقه فأحست بالعرفان بالجميل له لأنه هوّن عليها الأمر... فيتوريو العزيز... لن تنساه أبداً.

استمرت الجولة الطويلة التي حضرتها هنرييت ثمانية عشر يوماً من التجول المثير في الطائرات، وبما إنها كانت مرهقة في نهاية تلك الجولة، فقد دعت ليليان نفسها لزيارة ابناء عم لها يسكنون مزرعة في ضواحي بلدة تشيبوني القريبة من بحيرة مسسيبي في مقاطعة كوبيك.

كان هذا خير ما فعلته. بعد تنقلها من مقاطعة إلى أخرى ومن مناخ إلى آخر، استقرت في هذه المنطقة أياماً متعددة طلباً للراحة وعلها بذلك تسترد نشاطها في مناخ هذه المنطقة الرائع.

عندما عاد إليها نشاطها عاد إليها القلق الذي تمكنت من إبعاده بأن خزنت مقالاتها في كومبيوتر ابن العم باتريك، وحدثت المعجزة، بل معجزة المعجزات، فقد اتصل الكومبيوتر بالخط العالمي ليربط نفسه بخط باريس ثم بخط هنرييت، وجاء الرد: «مذهل...! رائع!» وتبع هذا مكالمة شخصية

تركت ليليان مشرقة، فإذا لم يكن هناك شيء، فقد ترسخت قدماها في عالم الصحافة واكتسبت مهنة جديدة إضافة إلى المحاماة.

لكن المشكلة... أن كل ما حدث لم يكن يعزيها ولا يعوضها عن خسارة أرماندو... تباً! لقد وعدت نفسها بعدم التفكير فيه، لكن حينما يشعر عقلها بأنه متحرر من كل شيء يطالعه أرماندو دون استئذان.

توسل ابن العم باتريك وزوجته تينا أن تبقى معهما بعض الوقت، ثم راحا يعرفانها إلى كل أعزب يعرفانه في محيط مئة كيلومتر من مزرعتهما. وكان جميع هؤلاء مؤهلين من ذوي البشرة البرونزية والقوة الديناميكية التي تفيض منهم قوة وصحة وحباً للحياة.

مع ذلك لم يترك أي منهم أثراً يذكر فيها، فهي وإن كانت قد أمضت وقتاً رائعاً معهم إلا أنها داخلياً بقيت على حالها. قالت لابن عمها وزوجته بعد ثلاثة أسابيع:

- إن تابعت السير على هذا المنوال فحضرت الحفلات كلها فسينتهي بي المطاف إلى الإرهاق الشديد الذي سيفوق ذاك الإرهاق الذي أوصلني إلى هذا المكان.

فقال باتريك، بلهجة فرنسية:

- لكنك لا تبدين تعبة كثيراً.

قاطعتهما تينا:

- لكننا نريد منك الانضمام إلينا في رحلة خططنا لها. في الواقع لن نقبل رفضك مهما كان السبب.

لم تستطع الرفض... فابن عمها وزوجتهما رغم ثرائهما الفاحش، لم ينجبا الأطفال... لذلك عوضا عن ذلك الحرمان بالالتفاف حول الأصدقاء الذين يكتظ بهم منزلهم.

- إلى أين سنذهب؟

- إلى أميركا أولاً. ثم نركب طائرتنا الخاصة لتقلنا إلى حيث نشاء.

فكرت ليليان في أنها ليست على عجل من أمرها... وكلما أطالت البقاء

هنا كلما ساعدها هذا على النسيان.

هذا ما كان. فخلال الشهر التالي لم تكد تفكر في أرماندو لأنها انشغلت برحلة صيد في البحيرات الكبرى الممتدة من كندا إلى أميركا، وتمتعت بالمكوث على شواطىء ميامي الدافئة، وانتهت زيارتهم لفلوريدا برحلة بحرية إلى جزر البهاما.

عندما سمعت باتريك يعطي تعليماته للطيار بالاستعداد للإقلاع نحو لوس انجلوس، اعترضت:

- أرجو أن تستثنيني من هذه الرحلة. فقد حان وقت رجوعي إلى بلدي.

- لن يكون لك ذلك، فأفضل جزء من الرحلة قادم.

- لكن...

- اسمعي سنغير خط سيرنا، ما رأيك لو نتجه إلى أوروبا، إلى إسبانيا، وبذلك تقتربين من بلادك فتتمكنين بعد ذلك من الوصول دون مشقة إلى وطنك؟

ليتها لم تقبل... فبعد يومين حطت بهما الطائرة الخاصة في مطار خاص في إسبانيا... في منطقة «غواديلكفير» أي الوادي الكبير فقد اختار ابن عمها من بين كل المناطق السياحية في إسبانيا، هذا المكان.

ما أعظم يد القدر!... تأملت ما حولها وهي تخرج من الطائرة لتشاهد أشجار الزيتون الممتدة في كل مكان... إن في هذا المكان يملك أرماندو مزرعة ومعصرة فليت القدر يكون حليفها فيمنع عنها الالتقاء به!

●●●

١٤ ـ لعبة الهروب

رب صدفة خير من ألف ميعاد. لم تدهش ليليان إطلاقاً عندما ذهبت وابن عمها وزوجته إلى أول حفلة لهما هناك، فشاهدت وهي تدخل القاعة الكبيرة المطلة على أجمل تلال الوادي الكبير، أرماندو هناك. كان وسيماً كالعادة يرتدي سروالاً أسود وسترة بيضاء وقميص حريرياً أبيض يبرزان اسوداد شعره وبشرته البرونزية.

أحست بجفاف في حلقها، وراح قلبها يضرب كطبول الغابات. وما ساعدها على الثبات وجود تلك الطاولة التي أسندت نفسها إليها.

كان كالعادة محاطاً بالجميلات، جميلات إسبانيا اللاتي يملكن ذاك الشعر الأسود الطويل، كانت المشابك العاجية تتجه جميعاً إليه. كن ينظرن إليه بعيون ولهى. مسكينة كلوديا لأنها ستتزوج رجلاً كهذا!

في هذه اللحظة التفت فشاهدها... بدت الصدمة واضحة من الجمود الفجائي الذي لفه... فكأنه انقلب إلى حجر... أو إلى عمود من ملح...! بل وكأنه هو نفسه من قوم سدوم وعمورة!

ردّت شعرها إلى الوراء ثم دنت منه، مسرورة لأنها في أبهى حلتها، فشعرها البرّاق قد طال بعض الشيء وعاد إلى لونه الأصلي.

وقالت بعفوية:

ـ مرحباً أرماندو... أتجني الزيتون هنا أيضاً؟

مرر نفسه ببراعة من بين المعجبات ثم أخذها إلى زاوية هادئة تاركاً ضجيج الحشد ورائهما... قال لها:

ـ لم أتوقع رؤيتك هنا.

ـ في الحفلة أم في إسبانيا؟

ـ معاً.

ـ لقد كنت في مهمة صحفية في كندا، واستقبلني ابن عم لي في مزرعته في كوبيك.

ارتفع حاجبه:

ـ أنت بعيدة عن كوبيك الآن.

ـ ليس عندما تكون وسيلة تنقلك طائرة نفاثة خاصة!

ـ آه... هذا النوع من ابناء العم إذن! هـه؟

ابتسمت:

ـ إنهما من خيرة الناس. أعتقد أنك مقيم في بساتينك؟

ـ وأين سأقيم إذن؟ فبعد القصر في فرنسا، هذا هو مكاني المفضل.

جابت عينا ليليان الغرفة، فضحك بكسل:

ـ كلوديا في روما تتهيأ للزفاف... كان المطلوب حفلاً صغيراً لكنه لم يلبث أن نما شيئاً فشيئاً.

ـ أين سيتم؟ في القصر الحكومي؟

فاتسعت ابتسامته، لكنه لم يرد. لعله اعتقدها تترقب منه دعوة؟ ولكن ألن يكون فظاً إن لم يدعها ووالديها؟

أمعنت النظر فيه فإذا بها تجده أنحف من ذي قبل تعم وجهه مسحة من الكآبة وتحيط عينيه خطوطاً لم تلحظها قبل الآن... تمتمت:

ـ لم اسألك قط... لكن هل غضبت أمك عندما علمت أنني كنت أخدعها.

ـ لقد غضبت مني لأنني حاولت خداعها، لكنها اغتبطت جداً عندما عرفت شدة براعتك في خداعي. لقد استحقيت كل شيء فعلته بي يا برتا... عفواً يا ليليان. وإذا كنت أذكر جيداً فقد كنت قاسياً معك أمام فيتوريو... فهل سامحتني؟

فردت بخفة:

- منذ زمن طويل...

- لا ريب في أنك ضحكت كثيراً عندما طلبت منك إقامة علاقة معي.

- بل قل إنني شعرت بالاشمئزاز.

- اوه... كوني صريحة كما تشائين. فقد يشكل نوعاً من التغيير بيننا ألا تظنين هذا؟

دنت من النافذة المفتوحة، فتنشقت عبير هواء الليل:

- حسبتني معجبة بك، لكن كل ما كنت أحس به هو الشفقة على كلوديا... فأنت خنزير يا أرماندو، وهي لا تستحق إنساناً مثلك.

تحرك شريان دم ينبض فوق صدغيه، فأشاح بوجهه:

- أوافقك الرأي. لكن ما قولك لو قلت إنني أنوي الإخلاص لزوجتي؟

- سأقول إنك كاتب مسرحي هزلي كبير!

- مع أنني أعني ما أقول.

- إذن أنا مسرورة من أجل كلوديا.

- وماذا عنك وعن فيتوريو؟

- ألم تعرف بعد؟ لقد ألغينا الخطوبة.

مرت لحظات صمت كان ينظر إليها خلالها:

- اسف لم يخبرني أحد. جئت إلى هنا بعد أسبوع من تركك روما وقد أُعلمت فقط بأن مشاكل وقعت في شركة فيتوريو في أميركا فدفعه ذلك إلى السفر لتسويتها.

- يومها فسخنا الخطبة.

- تعنين أنكِ من فسخت الخطوبة. لقد تعشيت معه ليلة سفري حينها لم يتوقف لحظة عن ذكرك.

- لا تشعرني بالذنب. أخالني ضعيفة القلب لذا لا أقوى على الارتباط.

- هذه حال الرجال عادة.

فضحكت:

- لقد كان هذا حالك زمناً طويلاً.

- لم يعد كذلك، فأنا أتطلع إلى الاستقرار.

- لقد كسبت برتا خيراً لأنها لم تقبل بعرضك.

- وما هي خططك الآن؟

- العمل المرح.

- أنت مزعجة، لكن اعلمي أن الفتيات اللواتي يلعبن بالنار يحرقن اصابعهن.

- أتظن هذا؟

نظرت إليه كما كانت تفعل «برتا» فإذا بها تسمع تهدج أنفاسه الثقيل. ثم قال بانزعاج:

- رويدك! ما عدت متوفراً لك.

- ما هذا...؟ فاسق ومصلح؟

- أجل... هذا ما حدث. والآن هل أحضر لك شراباً؟

- لا شكراً... فالنظرة في عينيك تخيفني. فقد تسممه لي!

ودون أن يرد استدار على عقبيه مبتعداً.

في الأيام القليلة التالية، سعت إلى نسيانه، لكن وجوده دمر السعادة التي كانت ستنالها في هذه المنطقة الساحرة من العالم. ورغم ذلك زارت مع ابن عمها وزوجته العديد من البساتين والمعاصر. ففهمت حينها لماذا يأسر هذا النوع من الأعمال لب أرماندو. فإنتاج الزيت الطيب هو كإنتاج الولد الصالح.

كانت تتناول العشاء مع ابن عمها وزوجته في مطعم رائع يطل على منظر رائع حيث الريف يمتد أمامه والهواء النقي البارد يهب من التلال القريبة. أحست ليليان بانتعاش وبهجة لم تحس بهما منذ زمن. أمام هذا المنظر الرائع اعتقدت أنها بدأت تنسى أرماندو، لكن القدر عاكسها لأنها رأت أرماندو يدخل المطعم تتأبط ذراعه امرأة شتتت إيمانها.

جلس إلى طاولة تقع مقابل طاولتها مباشرة فاستطاعت تأمل رفيقته. كانت

امرأة بيضاء البشرة ذات شعر أسمر جذاب في أواسط الثلاثينات من عمرها، بدا غارقاً في حديث عميق معها.

بعد فترة وجيزة غادر زبائن الطاولة الفاصلة بينهما وسرعان ما انكشفت طاولتها له فشاهدها... فانحنى ليتمتم شيئاً لرفيقته، ثم وقف ودنا منها.

ما إن أصبح على بعد خطوة منها حتى سارعت إلى تقديمه لباتريك وتينا. تمتم باتريك وقد تذكر شيئاً ما.

- دوڤيللي... ألست ابن العم الثالث الذي سيرث ادوارد؟

- أجل... وضع سخيف، ولكن المرء يقف مكبل اليدين أمام القانون.

- هل ستعيش في المنزل عندما...

احتجت زوجته وهي تنظر إلى ليليان:

- باتريك!

- آسف يا ليليان. إنه ليس بالموضوع الذي قد يعجبك سماعه!

قالت تينا بدبلوماسية:

- لماذا لا تنضم ورفيقتك لتناول القهوة معنا بعد العشاء؟

رد أرماندو:

- قد نتأخر... لقد تقدمت منكم في الواقع لأسألكم الغداء عندي غداً في معصرتي؟

فقالت ليليان:

- لقد شاهدنا جزءاً منها... و...

فقاطعتها تينا بحماس:

- سنحب هذا.

- حسناً... سأترقب قدومكم في الحادية عشرة. وبذلك أقدر على أن أجول بكم على البساتين.

التفت إلى ليليان:

- أتوقع قدومك معهما.

ابتسمت دون أن ترد... لكن ما حدث، أنها مرت بليلة مليئة بالأحلام

المزعجة استيقظت بعدها ورأسها يكاد ينفجر، وقالت تينا:

- سأتصل بأرماندو وأطلب منه تأجيل الدعوة.

- لا... أرجوك لا تفعلي. اذهبي وباتريك وسأخلد إلى النوم.

- لكن أرماندو سيغضب. فأنا واثقة من أنه وجّه لنا الدعوة ليراك.

استنتجت ذلك من النظرات الي كان يخصّك بها.

- إنه ينظر إلى كل السيدات على هذا النحو.

سرت ليليان لأن تينا قبلت الذهاب بدونها. فكان أن تناولت أقراص الإسبرين، وأخذت تحاول النوم عبثاً، لكنها أخيراً نامت، ولم تستيقظ إلا بعد ساعات على رنين جرس الهاتف. رفعت السماعة، لتسمع صوت أمها:

- أين أنت؟ ماذا حدث؟ أتصل بك لأسألك عن صحتك وعن موعد عودتك، أشعر وكأنك غبت عنا دهراً.

- كيف حالك يا أمي.

- بخير... لقد تحدثت بالأمس مع جينا.

- هل أخبرتك شيئاً عني؟ ذكر أرماندو أنها لم تغضب مني.

- هل شاهدته؟

- التقيته يوم وصلنا إلى هنا. وها هما باتريك وتينا في معصرته يتناولان الغداء معه. أما أنا فلم أرافقهما بسبب صداع أصابني.

- حقاً؟

- أجل حقاً... أمي أما زلت معي؟

- أجل يا عزيزتي... كنت أود القول... إن كلوديا توشك على الزواج الشهر القادم.

انزلقت السماعة من يدها المرتجفة، فالتقطتها بسرعة:

- وإن يكن؟

- ليس أرماندو من ستتزوجه.

فتمتمت ليليان:

- الخطوط سيئة.

www.elromancia.com

ـ بل واضحة يا حبيبتي. ولم تخطىء أذناك ما سمعته... كلوديا لن تتزوج أرماندو... ولم ترد الزواج منه إطلاقاً.

ـ لم ترد؟

ـ أخبرتني والدته بأنها مخطوبة منذ سنة لطبيب شاب تريث في أمر الزواج حتى يتخرّج.

ـ إذن لماذا قال أرماندو...؟ اوه... لا أصدق! الأمر غير معقول!

ـ بل إنه معقول لو فكرت ملياً!

ـ وماذا أخبرتك دونا دوفيللي غير هذا... وماذا أخبرتها أنت؟ هيا يا أمي... أخبريني.

ـ لم أقل شيئاً لا ترغيبن فيه... اتصلت بها لأسألها عن أحوالها وعن موعد الزفاف فأجابتني أن أرماندو لم يخطبها يوماً وما تبقى تعرفينه.

ـ أما قلت شيئاً عندما أبلغتك هذا؟

ـ قلت إنني قد اسأت فهمك.

ـ و؟

ـ حسناً... لقد ذكرت لها أنك وفيتوريو انفصلتما، ولكن هذا لم يكن سراً!

ـ لا... وأرماندو يعرف. لكنني ما زلت أجهل سبب تلك الكذبة.

ـ استخدمي بديهتك يا عزيزتي واتركي قلبك يحكم عقلك.

ـ لكن هذه ليست بنصيحة تقدمها الأمهات إلى بناتهن.

أقفلت أمها السماعة ضاحكة. أما ليليان فاستلقت على الوسائد تبحث عن أسباب اختلاقه قصة هذه الخطوبة. ألعل السبب سعيه إلى الهرب من برتا؟ لكن لماذا طلب منها أن تصبح عشيقته؟

نهضت عن السرير لتستحم... بعد أن انتهت خرجت وهي تشعر بأن المياه الدافئة قد أراحت أعصابها.

يجب عليها الخروج بحل، كما يجب عليها أن تتمالك شتات نفسها. لم ينفعها الخروج مع الرجال أو العمل المضني أو الابتعاد. إذن ما هو الحل؟

لعله يكون في العودة إلى الديار.

حجزت مكاناً على رحلة الثامنة صباحاً. عندما عاد قريباها كانت قد انتهت من توضيب أغراضها. جلست تشرب فنجان قهوة. فقالت لها تينا:

ـ من المؤسف أنك لم ترافقينا... لقد وفر لنا أرماندو يوماً رائعاً.

ـ ماذا فعلتم؟

ـ حسناً بعد جولة على منزله، وهو منزل رائع قديم مبني من الآجرّ الأبيض على طراز عربي، تناولنا غداءً تحت أشجار الزيتون المطلة على المعصرة.

ـ تأخرتم حتى تناولتم الغداء فالساعة تقارب الخامسة.

فضحكت تينا:

ـ ما زلت أحس بالتخمة... فهل لديك مانع إن لم نخرج للعشاء الليلة؟

ـ لن أكون في المساء... سأسافر فوراً إلى غرناطة ومنها سأطير إلى مدريد حيث أقضي الليل وبعدها أسافر إلى فرنسا.

لا احتجاجات باتريك ولا صراخ تينا جعلاها تغير رأيها. بعد ساعة من الوداع العاطفي... انطلقت بها السيارة.

في مثل هذا الوقت من الغد ستكون بعيدة آلاف الأميال عن أرماندو... وما أن تصل حتى تبدأ في التخطيط لبناء حياتها من جديد.

●●●

١٥ ـ ضلع آدم

كانت الساعة تقارب التاسعة ليلاً عندما طالعتها أنوار غرناطة. ما إن وصلت حتى استقلت طائرة تقوم برحلات داخلية إلى مدريد. بعد ساعة من الوقت أطلت عليها مدريد بجمالها وأنوارها مما جعل ليليان تندم لعدم قدرتها على البقاء هنا قليلاً لاستكشاف جمال هذه المدينة العريقة... لكن جنة ديارها كانت تومىء إليها.

ما إن استقرت في الفندق وارتدت ثوب نومها، حتى شعرت بالانزعاج فلم تعد تقوى على البقاء في غرفتها. عندها قررت الخروج لتجوب شوارع مدريد القديمة الضيقة، لتلقي نظرة على القصر الملكي القديم الذي يعود في تاريخه إلى القرن الثامن عشر.

دخلت إلى مطعم حديث في القسم الحديث من المدينة. فطلبت طاولة. مع أن إحدى الطاولات فرغت في منتصف الغرفة، إلا أنها فضلت الانتظار لتجلس إلى طاولة قريبة من النافذة.

غرقت في مقعدها غير آبهة لما يدور حولها خاصة لنظرات الرجال التي انصبت عليها. فقد لفت جمال جسدها وروعة شعرها أنظارهم رغم النور الضئيل الذي تبثه أنوار المطعم.

أخذت ترشف كوب العصير وتمتع نفسها بمرأى أنوار المدينة المتلألئة أمامها.

وجدت في النهاية أن عزلتها أكبر من أن تتحملها... فوقفت لتخرج.

رأت أمام المصعد جمعاً غفيراً ينتظر كما تنتظر. عندما فُتح باب المصعد خرج منه عدداً من الناس، ودخل آخرون أسرعت لتندس بينهم لكنها اصطدمت بكتفين قاسيتين جعلتاها ترتد إلى الخلف. عدلت جسدها ثم خطت إلى الأمام لكن طريقها سدَّه جسد أسمر صلب تجاوزته دون أن ترفع إليه بصرها إلا عندما شعرت بأنفاس حادة قريبة منها وإذا بها تجد أرماندو أمامها.

فصاحت بذهول:

ـ أنت!

صاح هو أيضاً:

ـ أنت!

عاد إلى المصعد معها.

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ أمضي ليلتي قبل العودة إلى الديار... وأنت؟

ـ الشيء ذاته.

ازدحم المصعد بالناس فجذبها إلى زاويته:

ـ لقد قال باتريك وتينا إنك كنت مريضة.

ـ كان مجرد صداعاً.

ـ ألم يكن عذراً انتحلته لئلا تريني؟

ـ لك أن تفسر ما شئت.

تحرك ليخرج ثم توقف:

ـ هل نشرب القهوة معاً؟

ـ أنا تعبة.

ـ هراء!

قبض على ذراعها ليجرّها معه خارج المصعد فصاحت:

ـ ماذا تحسب نفسك فاعلاً بالله عليك؟

ـ أقدم لك القهوة.

ـ لا أريدها. لقد شربت قهوتي شكراً جزيلاً لك... و...

قاطع ما كانت تهم بقوله ابتسامة الساقي وهو يقودهما إلى طاولة مخبأة بين النباتات الداخلية في مطعم صغير.

ـ كيف لك كل هذا التأثير؟

ـ رشوة مسبقة... والآن أخبريني، لماذا السفر المفاجىء؟

ـ ليس مفاجئاً. لقد حجزت منذ أيام.

ـ لكنك لم تذكري هذا أمام ابن عمنا.

ـ يا لشدة ملاحظاتك!

ـ هذا جزء من فتنتي! قد تكونين اشياء عديدة يا ليليان لكنك لست مضجرة إطلاقاً. فأنت أكثر من أدهشني من الفتيات اللاتي تعرفت إليهن.

ـ إذن سأدهشك عندما اسألك عن سبب تلك الكذبة التي تتعلق بخطوبتك لكلوديا؟

ـ كذبت عليك؟

ـ دعك من هذه الألاعيب يا أرماندو، لقد تحدثت والدتي إلى والدتك، فعلمت أنك لم تخطبها يوماً!

ـ آه... ألهذا تسرعين في العودة إلى الديار.

ـ ما علاقة سفري بك وبكلوديا؟

ـ ربما معرفتك بأنني حر دفعك للهرب.

ـ منك أنت؟

ـ لِمَ لا؟ لكن لا تخشي شيئاً فأنت حرة أيضاً.

وكأنما عنَّت له فكرة فوقف فجأة:

ـ فلنخرج من هنا.

ـ ماذا عن القهوة؟

ـ لم ترغبي في شربها. أتذكرين؟

سألته وهما خارج المطعم:

ـ إلى أين سنذهب؟

لم يرد... حاولت النزول في الطابق الذي تقيم فيه لكنه منعها وجرَّها إلى

الطابق التالي الذي كان طابقه. فأمسكها بيده وأخرجها من المصعد، حثها على التقدم حتى وصل إلى باب غرفته الذي فتحه بيده الفارغة.

ـ لا تمسكني فلن أهرب، وإن أردت التحدث نتحدث.

تبعته إلى غرفته. وهي تبتسم:

ـ ولماذا الابتسام؟

ـ أنا دهشة لأن الناس يتشابهون في السفر.

ـ ربما لأننا لا ننتبه جداً لهذا التشابه: فستان نوم بدل البيجاما. جيفنشي بدل جوي، وفيتوريو بدل كلوديا. هل فهمت ما أقصد يا ليليان؟

فهمت بوضوح تام، آخر شيء قد ترغب فيه هو شفقته وإذا استمر هكذا فسينفضح سرها.

انخفضت عيناه إليها.

ـ صدرك يكشف سرك دائماً يا ليليان، يعلو ويهبط ويصغر حجمه عندما تغضبين، ويمتلىء ويهدأ عندما تفرحين.

ـ حذار من تحليلي لك. لأنك قد تشعر بالخجل!

ـ لن أحس بالخجل معك يا ليليان... لقد ولت تلك الأيام.

ـ ولّت؟

توجهت إلى الباب، ومع أنه شاهدها إلا أنه لم يتحرك ليمنعها... بل كرر:

ـ ولّت! لأنني عندما سمعت أنك عائدة إلى فرنسا وعندما قلت إنك عرفت أن خطوبتي زائفة، ارتفعت غمامة كبيرة عن حياتي. بل علي القول ارتفع الغشاء عن عيني.

ـ لست أدري عما تتحدث؟

ـ وكاذبة؟

خلع سترته ثم تقدم ليعلقها، وبقي عند الردهة ليسد عليها طريق الخروج... وتابع كلامه بصوت منخفض:

www.elromancia.com

ـ أتعلمين شيئاً... أعتقد أن خطبتك لفيتوريو كانت كذبة وزيف كخطبتي لكلوديا، ولعل دوافعها هي نفسها.

ـ حقاً؟

ـ أجل... حقاً. في البداية استخدمت كلوديا درعاً ضد برتا. التي علمت أنها انجذبت إليَّ.

ـ يا لذكائك!

ـ كنت أظنه ذكاء... لكنني فيما بعد احتجت إلى درع لأسباب مختلفة، فقد ساعدتني كلوديا على اخفاء مشاعري الحقيقية عن «برتا».

ـ اوه؟

ـ لا تقولي لي إن «برتا» لم تكن تعرف أنني أردتها؟

ـ كان هذا واضحاً كنور الشمس!

ـ لكن سرعان ما انقلب إلى ما هو أكثر من الرغبة، فبدأت حينها اتساءل عن مستقبلنا. فهل ستسعد بالعيش معي. وهل لدي القدرة على العيش معها... اللعنة! يا ليليان! ليس لديك فكرة كم عذبتني تلك اللكنة وذلك التمثيل هذا إن تغاضيت عن تلك الضحكة الشيطانية.

كان من المستحيل أن لا تضحك الآن... ابتسم هو أيضاً:

ـ اضحكي كما تشائين أيتها الشريرة... ولكن لو علمت الجحيم الذي عشت فيه...

ـ كنت تستحقه.

ـ لا إلى هذا الحد... تلك الليلة التي أتيت إلى غرفتك، الليلة التي غازلتك فيها... أنا...

ـ لكننا لم نفعل شيئاً!

ـ ليس بشكل كامل... لكننا كنا على وشك الوقوع في المحظور. في تلك الليلة علمت أنني لن استطيع إبعاد برتا عني مهما كلف الأمر.

ـ رغم الكلام المقرف واللكنة الثقيلة والضحكة الشريرة!

ـ رغم كل شيء... أوشكت على طلبها للزواج، لكنني خشيت أن تكون

مغرمة بمالي لا بي.

ـ كيف كنت ستعرف الحقيقة؟

ـ أردت مرافقتها إلى إسبانيا معتقداً أننا إن أمضينا حياة هادئة معاً. ستتاح لنا فرص النجاح في الزواج. كما أردت كذلك أن أظهر لها أنني لست ذلك الماجن اللعوب الذي تظنه... وعندما أبلغتني أمي أن كلوديا قادمة إلى القصر، كنت أعرف هويتك الحقيقية.

ـ ماذا؟

هذا يغير اشياء كثيرة لن تستطيع استيعابها، وتابع:

ـ عندما تركت غرفة نومك تلك الليلة، أخبرتني أمي بأنها تلقّت مكالمة من السيدة دي روشفور، التي كانت قلقة عليك بسبب ابتعادك عنها. وقتذاك لجأت أمك إلى حوار دبلوماسي.

ـ أتعني أنها تركت القط يهرب من القفص؟

ـ ليس في البداية. لكنني أعتقد أن أمي تحدثت عن الفتاة «الحلوة غير المناسبة» التي وقعت في حبها، فأشفقت عليها أمك وأخبرتها الحقيقة!

ابتعد أرماندو عن الباب وكأنه ما عاد خائفاً من هروبها.

ـ كان عليك احتساب ذلك فما كان لأمك أن تدعك تخدعين صديقتها إلى ما لا نهاية.

ـ ما كنت سأتابع خداعي. لأنني قلت لنفسي إنه عندما يبوح بحبه لبرتا سأخبرها الحقيقة.

ـ هل كنت تنوين الضحك علي والانصراف بعد ذلك؟

ـ شيء من هذا القبيل. أنا أدرك الآن سبب تلك التمثيلية التي قمت بها مع كلوديا. لكنني أتحرّق شوقاً لأعرف كيف أتيحت لك فرصة وضع كلوديا بالصورة؟

ـ أشرت إلى أمي حتى تخبرها!

انهارت ليليان على أقرب مقعد وهي عاجزة عن كبح ضحكة انطلقت منها.

ـ يا لذكائك! حسناً، لقد كسبت تلك الجولة حقاً!

ـ قبل مرور الكثير من الوقت! لقد أردت تلقينك درساً. ولا تنسي أنني خططت لنقل برتا معي إلى إسبانيا، لكنني عندما اكتشفت إنها ليليان دي روشفور أصبت بصدمة العمر.

ـ يا لأرماندو المسكين.

صوتها كان مشبعاً بالشفقة، لكن شفتيها كانتا ملتويتين سخرية.

ـ لم أكن مسكيناً وقتاً طويلاً... فسرعان ما أدركت الجانب المرح من القصة، وضحكت طويلاً. عندها قررت أن ألعب لعبتك فترة. فكان قدوم كلوديا لصالحي. أما فكرة طلب معاشرتك دون زواج فكانت فكرة كلوديا... ليتك شاهدت وجهك عندما عرضت عليك ذلك المطلب.

ـ بل ليتك رأيت وجهك أنت عندما خذلتك!

ـ لم يكن صدك هو ما صعقني، لكن خبر زواجك من فيتوريو...

ابتعد عنها ليرفع بصره إلى السماء... إنه غاضب... وربما لن تراه ثانية! لكن ألم يقل منذ قليل إنه يحبها؟ وأنه أحبها عندما كان يعتقدها برتا وكان مستعداً للزواج منها ما إن يتأكد من حب برتا له.

هبت واقفة ثم دنت منه لتقف قريبة منه. كانت خطواتها خفيفة فلم يحس بها إلا بعد أن شاهد انعكاس يديها على النافذة وهي ترفعهما لتمسك به وتشده إليها هامسة:

ـ لقد استخدمت فيتوريو حاجزاً... ليتك تسامحني... فأنا لم ولن أحب سواك.

استدار ضمن دائرة ذراعيها ثم وضع ذراعيه حولها. وشدها إليه أكثر. ما إن رفعت يديها عن ظهره إلى كتفيه حتى أحست به يسترخي... متأوهاً:

ـ نهشت الغيرة صدري من فيتوريو. ليتك تعلمين عدد الليالي التي قضيتها أرقاً وأنا أتصورك بين ذراعيه، كما أنت الآن.

شدها إليه وقد انتفت الحاجة إلى الشرح فجسده المرتجف أوصل إليها الرسالة... تمتم وهو يتحسسها:

ـ ترتدين الكثير من الثياب.

رفعت رأسها بضعة انشات لترى بوضوح لهيب الحب يحترق في جمر أزرق. التحمت ذراعاها حول رقبته وتعلقت به فهمس متوسلاً:

ـ اجمدي كما أنت... لا تتحركي، كم من المرات وددت أن تستمر هذه اللحظات إلى الأبد.

لكن كيف تطيعه وكل ذرة في كيانها تتوق إليه؟ إنها له قلباً وقالباً! لذا لن تعرف الهدوء والطمأنينة قبل أن تصبح جزءاً منه. تجاوبت معه وقد استرخت عضلاتها بين يديه واشتدت يديها لتشعر بالأمان.

قال لها هامساً:

ـ لا تتلاعبي بي بعد الآن... يجب أن يكون زواجنا مشاركة لا منافسة.

ـ أعدك بأني لن أفعل... لولا إقامتنا في الفندق نفسه لما رأيتك أبداً.

ـ لا تظني ذلك لأنني كنت سأسعى إليك ما إن أداوي جراح كبريائي.

ـ لكنك كنت ستسافر إلى إيطاليا دون وداعي!

ـ عندما لم تأتي لتناول الغداء اليوم... وثقت بأنك تكرهينني إلى درجة كبيرة تجعلك لا تطيقين رؤية وجهي وهذا ما جعلني أغضب من نفسي لذا قررت العودة إلى بلادي لأعيد النظر بالأمور.

ـ كنت أظن الفتيات وحدهن يركضن إلى حضن أمهاتهن!

فضحك:

ـ أما سعيت إلى الشيء نفسه؟

ـ أجل.

مدت اصبعها تمرره على وجهه فأمسكه بقوة:

ـ لا!

ـ لن أتركك حتى تجيبي عن سؤالي.

ـ عن أي سؤال؟

ـ هل تتزوجيني يا برتا ـ ليليان، لتصبحي ضلعاً من ضلوعي ونوراً لروحي؟

ـ نعم... نعم... نعم!

ضحك بفرح... فتناهى إلى أذنيها وهي تسند رأسها إلى صدره صوت قوي مجلجل. تمتم:

ـ نحن على وشك إسعاد ثلاثة أشخاص.

ـ أضف إليهما اثنين آخرين.

ـ من هما؟

ـ أنت وأنا!

فضحك:

ـ كم ستحتاجين من وقت لشراء جهاز العرس؟

ـ الوقت الذي سيتطلبه ترخيص الزواج؟

ـ أتعنين أنك لا تريدين زفافاً ضخماً ترتدين فيه الثوب الأبيض الكبير.

فردت بنعومة:

ـ أريدك أنت فقط، بأسرع وقت ممكن.

ـ مع أطول وابطأ شهر عسل.

رفعها بين يديه وقال شارحاً وهو يمرر يديه على جسدها:

ـ هكذا تماماً... هكذا تماماً!

●●●

11

روايات أحلام

لن أكون لك !

www.elromancia.com
مـــــرمـــــوريـــــة